المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس بعد المائة

١ دسمبر سنة ١٩٤٤ ‏ ‏ ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٦٣

التعرض للضوء

وتأثيره في خواص الأحياء وتكاثرها

الشمس هي المصدر الذي تستمد الأرض منه الطاقة اللازمة لكل عمل طبيعي أو حيوي على سطحها . وقد تؤخذ الطاقة مباشرة من الشمس كما تفعل حبات اليخضور في أوراق النبات الأخضر ، أو قد تؤخذ مداورة كما يفعل الانسان حين يولد الطاقة المحركة من الماء المنحدر . فهذا الماء لم يرتفع إلى رأس المنحدر ، إلاّ بفعل حرارة الشمس التي بخرته ثم انعقد في الجو غيماً فقطراً فجرى منحدراً من أعلى إلى أسفل .

فمن البداهة أن يكون لأشعة الشمس تأثير في حياة النبات والحيوان ، وأن يتباين هذا التأثير ، بتباين مدّة التعرض لضوء الشمس ، وباختلاف الأشعة التي يتألف منها هذا الضوء وبعوامل أخرى .

إن طول النهار يختلف باختلاف خط العرض ، وباختلاف الفصل من السنة ، فطول النهار وطول الليل متساويان تقريباً عند خط الاستواء . أما عند القطبين ، فان الشمس تشرق نحو أربع وعشرين ساعة متصلة في بعض الصيف يوماً بعد يوم ، والظلام يرين نحو أربع وعشرين ساعة متصلة في بعض الشتاء يوماً بعد يوم ، والبلاد الواقعة بين خط الاستواء والقطبين يتفاوت فيها طول النهار والليل بتفاوت الوضع الجغرافي وفصل السنة .

ولكن مدّة الاشراق والظلام ، ليست العامل الوحيد ، في ما لضوء الشمس من تأثير . فشدة ضوء الشمس تختلف كمربع البعد عن الشمس ، ولما كان فلك الأرض إهليلجيًّا والشمس

في أحد محترقيه ، فشدة ضوء الشمس الساقط على الأرض تزيد أو تنقص وفقاً لوجودها في نقطة الذنب أو نقطة الرأس ، وهذا الفرق يبلغ نحو ٧ في المائة . ثم إن بعض الاختلاف في شدة ضوء الشمس يرجع إلى ما في الهواء من دقائق الغبار أو بخار الماء ، وإلى انحراف الشمس عن السمت ، وهو كبير في الشتاء ، ولذلك نجد أن مقداراً واحداً من ضوء الشمس في وقت واحد من النهار ، أضعف وأقل حرارة في الشتاء منهُ في الصيف .

وأنواع الأمواج التي يتألف منها ضوء الشمس ، تختلف كذلك . فالضوء الأبيض — ومعظم طاقتهِ مركز في منطقة اللون الأصفر — تكثر فيهِ الأشعة الحمر حين تنحدر الشمس إلى المغيب ، والأشعة الحمر أطول أمواجاً فهي أضعف طاقة من الأشعة الصفر . والتبديل في أنواع الأمواج التي يتألف منها ضوء الشمس الواصل إلينا ، مردُّهُ إلى تأثير الغلاف الغازي الذي يحيط بالأرض ، في الأشعة حين تخترقهُ . فضوء الشمس أغنى بالأمواج الزرق البنفسجية في الصيف في المنطقة الشمالية المعتدلة ، منهُ في الشتاء .

***

إلى هذه الحقائق تردّ المباحث الحديثة في النبات والحيوان ، لمعرفة مدى تأثرها بطول تعرضها لأشعة الشمس أو بقصره . وقد أسفرت هذه المباحث عن حقائق غريبة ، في نموّ النبات والحيوان ، وخواصهما وتكاثرهما .

من الأمور التي في حكم النواميس الطبيعية التي لا تحول ، انتظام ازدهار أصنافٍ من النبات في فصولٍ معيَّنة من السنة .

وقد أثبت البحث أن للحرارة شأناً عظيماً في هذا الإزهار ، ولكنهُ أثبت كذلك أن العامل المسيطر على الإزهار هو طول النهار ، أو مدة التعرّض لضوء الشمس . فمن النبات ما يزهر في الخريف حين تكون مدّة التعرض لضوء الشمس أقصر منها في الصيف . فهذا النبات يزهر في الصيف إذا وضعتهُ في مستنبت معتم وعرضتهُ لضوءٍ في المستنبت تعريضاً لا تزيد مدتهُ على مدة تعرضه لضوء الشمس في الخريف . وقد أثبت باحثان يدعيان جارنر والارد أنهما يستطيعان أن يحملا نباتات شتى على الازهار ، في غير مواعيد إزهارها الطبيعي بضبط ساعات تعرّضها للضوء . وذلك بغرسها في مستنبتات معتمة ، وتعريضها تعريضاً دقيقاً لضوء الشمس عدداً معيَّناً من الساعات .

والنباتات الزهرية — في عرف هذين الباحثين — ثلاثة أصناف عامة ، من حيث تأثرها

بزمن تعرضها للشمس . فالصنف الأول يبدأ الإزهار حين يكون النهار قصيراً ، وآخر يبدأ الإزهار حين يكون النهار طويلاً ، والثالث لا يتأثر تأثراً ظاهراً بطول تعرّضه لضوء الشمس أو قصره .

وقد طبقت هذه الحقائق تطبيقاً عمليًّا على أحد أصناف التبغ . فهو ضخم الأوراق وإذن فالعناية بإنباتهِ لها فائدة اقتصادية . ولكنهُ لا يزهر ولا يولد بزراً في أيام الصيف الطويلة . فأجريت التجارب عليهِ في مستنبت في فصل الشتاء لجاد ، وإذا ظهر أن قصر تعرّضهِ لضوء الشمس في أيام الشتاء لا يكفيهِ للإزهار والبذر ، عُرِّض مدة إضافية معيَّنة للضوء الكهربي .

***

هذه البحوث الحديثة ، تفتن الالب ، وتكشف عن بعض أسرار الحياة ، وتعين على تحسين أصناف النبات . وقد فصلنا بعض نواحيها في المقتطف ، ثم في كتاب « الفتح مستمرٌ » . على أننا اطلعنا منذ عهد قريب على وصف مباحث من هذا القبيل أجراها العالم بيسونيت Bissonette — وهو عالم أميركي وأستاذ في كلية ترينتي بهارتفورد كونكتكت — على أصناف من الحيوان ، أسفرت عن نتائج تبعث على العجب والإعجاب ، ولا بدَّ أن تجنى منها فائدة علمية واقتصادية عظيمة .

فحين قال الشاعر تنيسون ، في قصيدتهِ لكسلي هول : « إن هوى الشاب يتجه إلى الحب في الربيع » كان الرأي أن عودة الدفء إلى الأرض يوقظ الطبيعة من غفوة الشتاء ، ويحث على النشاط ، وأنَّ دفءَ الفصل المقبل يجهز الأحياءَ من نبات وحيوان بفيض من الطاقة لابدَّ منهُ في النموّ والحركة .

ولكن التفسير الجديد الذي أسفر عنهُ بحث بيسونيت في الحيوان ، وبحوث الآخرين من أمثال جارنر وألارد في النبات ، هو أن زيادة التعرّض لضوء الشمس ، في أيامٍ آخذة في الطول ، هو سرّ الميل إلى الحب والنموّ .

يعد الأستاذ بيسونيت ، أعظم ثقة في العالم في موضوع تأثير الضوء في وجوه التغير الذي يقع في الأحياء في الفصول المختلفة . وقد أجرى تجارب على حيوانات شتى ، أسفرت عن وجوه من التأثر والتغيّر ، كانت تسنَد من قبل ، إلى اختلاف درجة الحرارة وحسبُ .

فقد تمكن بيسونيت من أن يحمل بعض الحيوانات على أن تتخذ لها في الشتاء الفروة التي

تتخذها في الربيع ، وبعضاً آخر على أن يلد بطنين من الولد في السنة بدلاً من بطنٍ واحد ، وقسر طيوراً على أن تبيض في ثلج الشتاء بيضاً لم تكن تبيضه إلاّ في أيام الربيع الدافئة .

وقد ظفر بهذه النتائج ، بتغيير مدى تعرضها للضوء سواءٌ أصناعيًّا كان الضوء أم طبيعيًّا . فبعضها ظفر بهِ باطالة النهار — أي مدة التعرُّض للضوء — وبعضها بتقصير هذه المدة . والبعض الآخر بتعريض الحيوان للضوء زمناً قصيراً فزمناً طويلاً على التوالي .

وقد أثبتت طائفة من التجارب أن ثمة زمناً معيناً من التعرض للضوء ، يجعل بعض الأنواع من الحيوان في حالة قابلة للاستجابة للمؤثرات الطبيعية . وبهذا يفسر سر الطيور القواطع . فطول النهار أو قصره هو العامل الحاسم في هجرة هذه الطيور ، ولا يتغير تأثيره في حر أو برد .

وقد أجريت إحدى التجارب على ابن عرس ، فاستطاع بيسونيت أن يحمل هذا الحيوان على أن يرتدي في الربيع الثوب الأبيض أو القريب من البياض الذي ألف ارتداءه في الشتاء وعلى الاحتفاظ بهذا الثوب الأبيض خلال الصيف والخريف ، ثم على أن يرتدي في يناير وفبراير الثوب الأسمر الأدكن الذي ألفه في الصيف، وقد كانت درجة الحرارة هي الدرجة الخاصة بكل فصل من الفصول لم يعترها تبديل ، ولكن زمن التعرض للضوء وحده هو الذي تبدَّل . فعرض ابن عرس في الصيف لجو حرارته كحرارة الصيف ، ولكن مدة تعرضهِ للضوء فيهِ كانت كمدة تعرضهِ للضوء في يوم من أيام الشتاء، فاتخذ ابن عرس في الصيف الثوب الأبيض أو القريب من البياض الذي يألفهُ في الشتاء .

وقد تمادى بيسونيت في تجربتهِ التي أجراها على ابن عرس، فجعلهُ يغير لون ثوبه أربع مرات — من أبيض إلى أسمر ثم إلى أبيض فأسمر — بدلاً من مرتين بتعريضهِ للضوء مدداً تحكم في طولها وقصرها .

من الفراء المشهورة فراء حيوان يعرف باسم «المنك» وهو ثمين فاخر ، وأفخرهُ وأغلاهُ ما كان مصنوعاً من فراء هذا الحيوان في فصل الشتاء . وجلد حيوانٍ واحد قد يبلغ ثمنهُ ٢٥٠ جنيهاً، ولكن بيسونيت أثبت بالتجريب العملي في مزرعة لحيوان المنك في أميركة انهُ يستطيع أن يجعل فراء الحيوان في الصيف كفرائهِ الثمينة المطلوبة التي يمتاز بها في الشتاء .

ويلوح أن حيوان المنك رقيق المزاج فقد أثر في بعضه تقصير زمن تعرضه للضوء ، في فصل الصيف ، فاضطرب جهازه العصبي ؛ فلم يتخذ لنفسه ثوبهُ السويَّ ، حتى حين حلَّ فصل الشتاء فعلاً .

وقد حمل حيوان « الراكون » على أن يولّد مرتين في السنة بدلاً من مرة واحدة ، بزيادة تعريضهِ لضوءِ المصباح ، في فصل الخريف بعد أنْ يقلَّ الضوء الطبيعي ، حين يقصر النهار . وحين أعيدت هذه التجربة ، للاستيثاق ، ظهر أمر عجيب . ذلك بأن الطعام المقدَّم لهذه الحيوانات ، كان ينقصهُ بعض المواد البروتينية . وكان النقص راجعاً إلى خطإٍ في تدبير الطعام . ولكن ظهر أن هذا النقص أسفر في الحيوانات المعرَّضة لضوء المصباح ، عن معدَّل أعلى في حمل الإِناث ، وعددٍ أكبر من الولد في كل بطن ، بالقياس إلى الحيوانات الأخرى التي ظلت في المعمل تعيش عيشتها السوية المألوفة .

ويقابل هذا أن الماعز يزداد تناسلهُ حين يكون النهار قصيراً . ويقل تكاثرهُ حين يكون النهار طويلاً .

ولعلَّ أبلغ دليلٍ على أن درجة الحرارة ليست العامل الفاصل في إحداث التغيُّرات الفسيولوجية التي تحمل بعض الطيور على أن يبيض في فصول دون فصول ، هو هذه التجارب التي أجراها بيسونيت وصاحبهُ « تشيك » Csech على الطائر المعروف باسم التَدْرُجْ Pheasant وهو شبيه بالحجل جميل المنظر . والتدرج يبيض في العادة في شهر ابريل والطائفة التي اعتمدها بيسونيت في هذه التجربة لضبطها ، جرت على عادة أن تبيض في ابريل ولكن الفريق من هذه الطائفة الذي أجرى بيسونيت التجربة عليهِ ، بدأ يبيض في شهر فبراير .

قال بيسونيت : وكنا نجمع البيض لنمنع تجمدهُ لأن التدرج كان كثيراً ما يلقى بيضهُ في الثلج وكانت طيور منهُ تقف عند حافة أقفاصها فتتجمد وتموت ، وبعضها كان يحاول التخلص من قبضة الجمد فينزع ريش ذيلهِ .

وقد بدأ تطبيق جدول تعريضها للضوء في الثالث من يناير فأضيء مصباح كهربي مدة ساعة في الأسبوع في القفص الخارجي ، ثم زيدت المدة حتى صارت سبع ساعات في الأسبوع ثم ظلَّت كذلك إلى أن انتهت التجربة .

وللاستاذ بيسونيت تجارب ، تشير إلى أن الضوء يؤثر في الحيوان من طريق العينين فيؤثر بدوره في الغدة النخامية ، وهذه الغدة تؤثر في أجهزة التناسل ونموّ الريش والفراء . فعصب البصر يتصل اتصالاً مباشراً بالمخ ، والغدة النخامية موقعها عند أسفل المخ من الخلف . ولكنَّ الأستاذ بيسونيت لم يكشف بعد ، أي شيء في العين أو المخ يؤثر في الغدة النخامية ؟

قوس الغمام

قوسٌ من الألوان لاتنحني   مشدودةٌ في الجوّ أوتارُها
في كل لونٍ مائلٌ أزرق   تلـــهُ الشمسَ وأقمارُها

قاعدةٌ في الأفق مرفوعةٌ   فوق المياهِ الزرقِ أحجارُها
الذهبُ الإبريزُ فولاذُها   واللؤلؤ المنثور مسمارُها
غصنٌ من الأنوار إما التوى   تشمّـهُ الأرضُ وأبحارُها
طيرٌ من الجنة ريشاته   منتوفة في الجو آثارها
قصيدةٌ للشمس أبياتها   وللنجوم الزهر أشعارُها

كأن هذي الأرض في عرسها   تاهت على الإنسان أقطارها
فضفّـــرت للصبح إكليله   وطاب واخضرّ له غارُها
واختلجت بالنور أبرادها   وفُتقت في الجو أزرارُها
ولوحت زهواً بمنديلها   ورقَصت في الروض أسمارُها
فرنَّ في الأجواء خلخالها   وشُد في الآفاق زنارُها

كأن عينَ الشمس في جوها   تُلَـوِّن الأمطارَ أنوارُها

بيروت   الدكتور حبيب ثابت

البنسلين والرمد

حديث للدكتور علي توفيق شوشة بك

وكيل وزارة الصحة

يُعد الرمد الصديدي من أهم العوامل التي تؤدي إلى فقدان البصر ، وخاصة إذا كان ناشئاً عن عدوى «الجونوكوك» وهو ميكروب السيلان . فلما كشف البنسلين ، وعرف تأثيره العجيب في علاج السيلان ، كان من الطبيعي أن يتجه التفكير إلى استخدامه في هذا النوع من الأرماد الصديدية ، ما دام الميكروب المسبب لهما واحداً . وقد جُرب — أي البنسلين — في شكل قطرة ومرهم ، يوضعان مراراً في العين ، فوجد تأثيره ضعيفاً وفائدته محدودة ، لذلك رؤي أن يجرّب بطريق الحقن . فاستعمل حقناً في العضل كل أربع ساعات مدة ٢٤ ساعة ، واقتصرت التجارب على الرمد الصديدي الناشىء من ميكروب الجونوكوك وحده .

وقد اختيرت لهذا الغرض ثلاث حالات لأشخاص تتفاوت أعمارهم ودرجات إصابتهم . الأولى حالة غلام في التاسعة من عمره ، والثانية حالة طفلة عمرها أربع سنوات ، والثالثة حالة رجل عمره ٤٥ سنة .

وكانت إصابة الغلام برمد صديدي خفيف غير مصحوب بمضاعفات ، وقد أظهر الجونوكوك عند هذا الغلام قوة مقاومة شديدة للبنسلين ، فلم يختف الميكروب من عينه إلاّ بعد عشر ساعات أي بعد ثالث حقنة . ومع أن الحالة تحسنت من الوجهة الاكلينيكية — إذ قلت الافرازات واختفى ورم الجفون واحتقان الملتحمة ، واستطاع المريض فتح عينيه — فقد ظهر الميكروب ثانية بعد ٢٥ ساعة من آخر حقنة .

وكان الرمد الصديدي الذي أصيبت به الطفلة مصحوباً بقرحة خفيفة في العين اليسرى ، وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات من أول حقنة ، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة من الوجهة الاكلينيكية ولكن بقيت القرحة كما هي ، ثم عاد الميكروب إلى الظهور بعد ٢٤ ساعة من آخر حقنة .

أما إصابة الرجل فكانت أشد . وذلك أن الرمد الصديدي كان مصحوباً بقرحة مع فتق (قرحة منبثقة) في العين اليسرى . وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات أيضاً ، وتحسنت

حالة الجفون والملتحمة ، وخاصة في العين اليمنى ، إلاَّ أن القرحة والفتق القرحي واحتقان العين وما بها من الآلام ، كل هذه لم تتحسن ، ولذلك ظهر الميكروب بعد ٤٨ ساعة من آخر حقنة .

وقد وُضعت الحالات الثلاث التي تقدم ذكرها موضع الملاحظة والفحص ثلاثة أيام أخرى بدون أي علاج . فلما لم يختف الميكروب ولم تلتئم القروح أجريت بعض العلاجات النوعية ثلاثة أيام فاختفى الميكروب من أول يوم ، والتأمت القروح .

وقد تبين أن الوقت الذي أعطيت فيه الحقن « وهو ٢٤ ساعة » لم يكن كافياً . ولهذا أجريت التجربة في حالتين ، وأعطيت الحقن فيهما مدة ٤٨ ساعة ليلاً ونهاراً . فشوهد التحسن من الناحية الاكلينيكية ، إلاّ أن هذه الطريقة كانت متعبة وغير عملية ، لأنها تستدعي تخصيص طبيب لاعطاء الحقن ليلاً ، كل ثلاث ساعات . وهذا يتعذر تنفيذه إذا كان عدد المرضى كثيراً كما هي الحال في الأرماد الصديدية .

والخلاصة أننا وجدنا أن هناك تأثيراً لمادة البنسلين في الأرماد الصديدية البسيطة ، والتي لا تكون مصحوبة بالمضاعفات الناجمة عن ميكروب الجونوكوك ، غير أن طريقة العلاج به تحتاج إلى تخصيص أداة طبية تتفرغ لحقن المريض ليل نهار ، مما يجعل تنفيذها من الوجهة العملية غير مستطاع ، وبخاصة إذا لاحظنا أن حالات الأرماد الصديدية كثيرة الانتشار في المدن والريف .

وأرى أن أذكر في هذا الصدد ، أن كثرة انتشار الرمد في مصر حملتني على التفكير في استخدام بعض المركبات النوعية التي أثبتت التجارب والمشاهدات شدة تأثيرها ، على ألاَّ يكون استخدامها مقصوراً على المستشفيات الرمدية ، بل يشمل ذلك جميع الوحدات التابعة للوزارة ، في الأقاليم ، سواء أكانت منشات صحية أم مستوصفات .

ولقد استأنست في ذلك بالدكتور ولسون مدير المعهد الرمدي التذكاري ، فأيد هذه الفكرة كل التأييد بمذكرة نفيسة سأعرضها على معالي الوزير ، ليضع ما ورد فيها من المقترحات موضع البحث . فإذا استقرت النية على الأخذ بها بدأت الوزارة في التنفيذ . وبذلك نكون قد خطونا خطوة جريئة في مكافحة مرض من أشد الأمراض خطراً على المصريين . (١)

---

(١) نشر في الاهرام ٢٠ نوفمبر ١٩٤٤

الروح العلائية

وأثرها في أدبنا الحديث

لأنيس الخوري المقدسي

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتّصل بهم من عظماء الناس ، إليهم يتزلّف ، وبوقائعهم يهتم ، ولاتمام رغائبهم يسرع . أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلّما كانت تهمّه أو تسترعي انتباهه . وإن كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدّمات قصائده أو خطرة خاطفة من بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره ، فالمديح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهبه ، والغزل أو العتاب لمن يحبه أو يلازمه ، والفخر بنفسه أو بعشيرته . وقد نسج أكثر الشعراء على هذا المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرّة . بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء .

انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحرّ إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة . وقد مرّت قرون قبل أن بعثت روحه ثانية تحرّك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع . هذا البعث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبيّن ولو بإيجاز كلّي مدى أثره فيها.

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لاتزال جارية على سنّة القرون الوسطى ، وطفيفاً جدًّا كان تأثرنا بالنضال المحتدم يومئذٍ في أوربة بين آراء الطبيعيين وتعاليم الإلهيين . فظلّت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي . وظلّ الإيمان بالله وبالآخرة راسخاً في نفوسهم . الله أكبر بيده نواميس الكون وإليه مصير الانسان ، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوءة إلاّ بديهيّات لاتقبل مناقشة ولاتحتاج إلى برهان . وإلى ذلك يرجع كل أدب روحيٍّ في الأقطار العربيّة قبل الانقلاب الفكري الذي عمّ الغرب لبروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها .

فلمّا انتشر كتاب داروِن في أصول الأنواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في

نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبقى بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامّة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض ما لا يجاري السنن الطبيعية مما أدّى إلى كثير من الجدل والمناظرة (١) .

وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميّل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والإيمان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني (٢) والشيخ محمد عبده (٣) وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الاسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوهم ظاهر ألفاظهِ مخالفة للعقل والعلم (راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩) .

وقد ظلّ هذا النزاع بين الطبيعيين والإلٓهيين محتدماً حتى مطلع القرن العشرين ، ولعلّه لا يزال في بعض الأنحاء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن هي نزعة التجديد ، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب ينادي بالحرّية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الالحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء — كما يقول الدكتور صرّوف — أفسد من هذا الوهم ولا أقبح منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال ، فكم عالم من أشد الناس تديّناً وكم كافر يجهل مبادىء العلم » (٤) .

هذا الأدب الجديد أدبٌ فكريّ ومن مزاياه الشكّ في كلّ ما يناقض العلم أو يغلّ العقل عن التقدم . ولا أقول إنهُ صدى لشعر المعري ولكنّي أقول إنهُ يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحرّ المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسنى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنّى لمفكري القرن العشرين ؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بدّ في الاجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

﴿ بيئة المعري الفكرية ﴾ : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس

---

(١) من رام الاطلاع على ما كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المقتطف مج ٨ ص ٧١٢ — ٧١٩

(٢) راجع خاطرات الافغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥

(٣) راجع مقال الدين والفلسفة ، المقتطف مج ١٠٥ (٤) المقتطف ٧ — ٥٦٥

للهجرة — أي في إبّان الحضارة الفكرية العربية. في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبغ في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكّرين. فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الأخرى مراكز علمية احتكت فيها «الروحانية» السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والمعاد بالعقلية اليونانية التي حملت إليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية. وكان من جرّاء هذا الاحتكاك تعدّد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي. فتسرّب الشك إلى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الإنكار أو اللاأدرية، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن. ومن هؤلاء المعرّي فقد نشأ في هذا الجوّ الفكري المضطرب توّاقاً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل، وفي نفسه الحساسة كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحرّ اصطداماً عنيفاً. حقّاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتداؤه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز إلاّ بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه على العلم في المعرّة. وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات(١) ما يدل على نزعته منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس: «قد أخلقتِ الجسد فما تريدين، اظعني عنه لا يحمدك في الحامدين. ما زلت آمل الخير وأرقبه حتى نضوت كَمَلاً ثلاثين.. فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجله على نار الحباحب علمت أن الخير مني غير قريب. الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين، وتبرّع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفّر عن اليمين». ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة المعرّي إلى التأمل في النفس وتبعتها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهد والتعالي عن سفاسف الحياة(٢).

وقد نرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه، إذ يقول عن مصير الأموات:

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم   ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً   فإنيَ لم أعط الصحيح فأستغني

ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلاّ في دور العزلة — دور اللزوميات، وفيه يظهر طابعه الروحيّ الخاص.

﴿طابعه الروحي﴾: ليست اللزوميات عند التحقيق إلاّ انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية. ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء

---

(١) ص ٢٧٩ (٢) مع أبي العلاء في سجنه ص ٢١٥ — ٢٢٣

والكتّاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والتشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة : وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهناك حياة ثانية أم لا حياة؟ هل الله كما تصوّره النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والايمان أم لا يتفقان ؟. مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس المعري وكان لديها كالقارب تتقاذفه اللجج . فبينا تراه يقينيًّا يهاجم الجاحدين والمعطلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطّلا   فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد

وقوله : وقال أناس ما لأمر حقيقة   فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى
فنحن وهم في مزعم وتشاجر   ويعلم رب الناس أكذبنا زعما

وقوله : لا ريب أن الله حق فلتعد   باللوم أنفسكم على مرتابها

تراه يتابع اللاأدريين فيقف من الغيبيات موقف المشكك بل موقف المناقض نفسه إذ يقول:

دفناهم في الأرض دفن تيقن   ولا علم بالأرواح غير ظنون
وروم الفتى ما قد طوى الله علمه   يعد جنونا أو شبيه جنون

*

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البرية أن يبكوا
يحطمنا صرف الزمان كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

*

خذ المرآة واستخبر نجوما   تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب   ولكن لا تدل على النشور

والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فمما لا شك فيه أنه لم يصل إلى درجة الالحاد فهو يقول بإله حكيم متعال عن البشر . ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن العادي . ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها نخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني لم يكن إلاّ نظر لاأدريٍّ متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية .

٢ — تشاؤمه : وهو ظاهر في أكثر شعره — كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية :

قد فاضت الدنيا بأدناسها   على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم   وما بها أظلم من ناسها

وقوله :

قالوا فلان جيّد لصديقه   لا يكذبوا ما في البرية جيّد
فأميرهم نال الإمارة بالخنا   وتقيهم بصلاته متصيّد

وجبلة الناس الفساد وضلَّ من   يسمو بحكمته إلى تهذيبها

ولو تابعناه في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتماً بالجبرية المطلقة ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية . فباطلة كل وسائل الثقافة أو الإصلاح . أليس الانسان ولد فاسداً وسيبقى كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المعري جبريًّا وإلى أي حدّ ؟ وللجواب عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرّق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية . فالأولى تفكير منظم ينتهي فعلاً إلى القول بأن الإنسان غير مكلّف وأنهُ لا سبيل إلى خروجه عما رسم له منذ الأزل، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كمجموع، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشعرية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول. فبينا ترى الشاعر من جهة يقول بالقدَر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحيّ رزقٌ ما أتاه بسعيه   وعقلٌ ولكن ليس ينفعه العقل

*

قضى الله فينا بالذي هو كائن   فتم وضاعت حكمة الحكماء

*

كتب الشقاء على الفتى في عيشه   وليبلغنّ قضاءه المكتوبا

*

ما حركت قدم ولا بسطت يد   إلاَّ لها سبب من المقدار

*

قضاء يوافي من جميع جهاته   كما هو عن أيماننا والأياسر
ولو لم يرد جور البزاة على القطا   مكوّنها ما صاغها بمناسر

*

وهل ألوم غبيًّا في غباوته   وبالقضاء أتته قلة الفطن

*

وما دفعت حكماء الرجال   حتفاً بحكمة بقراطها
ولكن يجيء قضاء يريك   أخا غيّها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عليا ينشدونها ويحضهم على فضائل يعيشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جادّ فيما يقول، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الإنسان على الخير . وإلاَّ فما معنى طلبه الاصلاح الديني والاجتماعي وما معنى نقده حياة الأفراد والجماعات، ولماذا يدعونا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتنويه والادعاء حاضًّا على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن المعري جبري

إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الأيام أمام نظام الحياة والموت . ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة .

نعم إنه على ما يظهر يائس من تهذيب الطبع البشري :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً   فذاك هو الذي لا يستطاع

ولكن يأسه لا يمنعهُ عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب الحقيقي . فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية ، ولهذا تسمعه يعارض الجبرية بقوله :

إن كان من فعل الكبائر مجبرا   فعقابه ظلمٌ على ما يفعل

٣ — الاخلاص : وهو من أبرز صفاتهِ . فهو مخلص إلى العقل الهادي الوحيد في الحياة :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

*

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها   شأناً ولكنّ فيها ضعف إسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا   فالعقل خير مشير ضمّه النادي

ولا يعني ذلك أن المعرّي كان معتزليًّا في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم بنقده جميع الفرق ، ولكنهُ كان كالمعتزلة في تعظيمهِ شأن العقل . ويظهر إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين . وهو عنده على وجهين . الأول : وضعي أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض ، وهذا باب للاختلاف بين الناس ولنشوء التحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء ، وفي ذلك يقول :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً   وأودعتنا أفانين العداوات

والثاني : روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب الفضيلة والتعالي عن الأطماع الضارّة والشهوات الفاسدة .

وقد يكون في الوجه الوضعي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس . ولكن المعري قلما يرى ذلك فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما يحرصون عليها لما يرجونه من فائدة مادية :

إنما هذه المذاهب أسبا   ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

*

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما   دياناتكم مكرٌ من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا   وبادوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية . بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الأفراد ، فيقول مثلاً :

رويدك قد غررت وأنت حرٌّ   بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً   ويشربها على عمدٍ مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساءٍ   وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى   فمن جهتين لا جهة أساءَ

ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بعظاته متفقه   في الدين يوجد حين يكشف عاهرا

ومع تفضيله الاسلام على سواه يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب والفرق فيقول :

وكلّنا قوم سوء لا أخصّ به   بعض الأنام ولكن أجمع الفرقا

*

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقصّ وفرْ   قانٌ ينصّ وتوراة وإنجيل

*

في كل جيل أباطيل يدان بها   فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل

*

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت   ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا   دين وآخر ديّن لا عقل له

وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى الأوضاع الخارجيّة . وإنما الأمر عنده الجوهر لا العرض — الروح لا المسوح — فلا عجب أن نراه يخاطب الديّن الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :

توهمت يا مغرور أنك ديّن   عليَّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً   ويشكوك جار بائس وخدين

والذي يستسلم إلى أطماعه وشهواته :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً   سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له   أطماعه لم يلف بالمتماسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :

الدين إنصافك الأقوام كلّهم   وأيُّ دين لآبي الحق إن وجبا

وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمّس الدين في قلب الإنسان وتصرّفاته لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة بماله لأجل مصالحه ، لا سيدة

مستبدة به تسومه العذاب وتتمتع بما يجنيه من مال . فيؤلمه أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الأمور بغير عقل   فيُنفَذ أمرهم ويقال ساسه
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ منّي   ومن زمن رئاسته خساسه

ويصوّرهم بأقبح الصور فيقول :

ساس الأنام شياطين مسلطةٌ   في كل مصر من الوالين شيطان

وقد يحمل المعري إخلاصه أيضاً إلى مهاجمة العلماء ذاهباً إلى أن علمهم ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلاّ   قريب حين تنظر من قريب

ولا يستثني نفسه بل يصرّح بكل تواضع أنهُ جاهل :

الله يشهد أني جاهلٌ ورعٌ   فليحضر القوم إقراري وإشهادي
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره   إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

*

أقررت بالجهل وادّعى فهمي   قومٌ فأمري وأمرهم عجب
والحقُّ أني وأنهم هذر   لست نجيباً ولا همُ نجب

*

علمي بأني جاهلٌ متمكنٌ   عندي وإن ضيّعت حق العالم

*

لقد علم الله رب الكمال   بقلة عقلي وديني ومالي

*

دعيت أبا العلاء وذاك مينٌ   ولكنَّ الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ، فإذا حبس المطر أو فاض فإن الصلاة إلى الله مثلاً لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم   يقلّ حياه أو يزيد به السّجم
فقولكم ربّ اسقنا غير مُمطرٍ   ولكن بهذا دانت العُرب والعُجمُ

ومهما يحاول الإنسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فإنهُ لا يرجع إلاّ بالخيبة ولا يلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى   حجراً يقول ولا هزبراً يبغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً   فأذاك تستمري وأنفك ترغم

وإذا كان الأمر كذلك فعبث تعلقنا بالخوارق واتكالنا على التدجيل والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الأباطيل ، ومن العبث أن نقول إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الإنسان :

لم يسقكم ربّكم عن حسن فعلكمُ   ولا حماكم غماماً سوءُ أفعال
وإنما هي أقدارٌ مرتّبةٌ   ما علقت باساءات وإجمال

فالمعري مخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء ويطلب الصراحة والابتعاد عن الغرور ونبذ كل ما لا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في عهده وبعد عهده بعيدين عن إدراك كنه نفسه يرمونه بالكفر أو يتقوّلون عليه ما يمليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المعري في القرن الخامس الهجري يعيش في جوّ قرننا الحاضر بل نستطيع أن نعده من حكماء هذا القرن ومن روّاد التفكير الروحي الحديث . ومن يقرأ أدبنا التأملي اليوم ولا يراه مشبعاً بالروح العلائية — روح الحيرة والتشاؤم والإخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساوئ الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لا يرون في الحياة إلاّ أنفسهم ولا يرون في الأدب إلاّ ما يوصلهم إلى أغراضهم ، لكن المعري وهو الأعمى قد ألقى على الحياة نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فانعكست نظراته عن بيئة قاتمة كأنما هي أشعة تنفذ الينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو النظرات التي نراها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليد لشعر المعري بل أعيد القول أن شاعر المعرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .

والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي العلاء عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم ، ولماذا ؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العلمية الحرّة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تتهيأ له بيئة تساعده على النظر الحر كما تهيأت له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة فاني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الاربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب . في هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الأجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

❊ ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المعري وأدب القرن العشرين ❊ : إن أدبنا الفكري إزاء الروح العلائية بين عاملي جذب ودفع . الأول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المعري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجده في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها   مذ نشأتي خبرة مستقرئ

فلم أشاهد غير ما حالة   أرتني السوء بكل امرئ

هذا صوت يرتفع من العراق على لسان الدجيلي وهو شبيهٌ في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الأحياء ومض سحابة   بدا خلّباً والشر ضربة لازم
إذا ما رأينا واحداً قام بانياً   هناك رأينا خلفه ألف هادم
وما جاء فيهم عادل يستميلهم   إلى الخير إلاّ صده ألف ظالم
جهلت كجهل الناس حكمة خالق   على الخلق طرّاً بالتعاسة حاكم

ألا يعكس لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالأنام ؟ وأمثال هذه الأبيات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المعري والده على الاتيان به إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصيح بمرارة اليائس :

أبي ! وفي النار مثوى كل والدة   ووالدٍ أنجبا للبؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الحبل في عنقي   يشده لف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة   قضيت عمرك شأن الزاهد السالي

وهوذا العقاد وهو الأديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة الحديثة ، والمعنيّ في كتاباته باصلاح المجتمع . تجيئه أحياناً ساعات يقع فيها تحت تأثير أبي العلاء فيقول:

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة   فعدت وما لي في الحياة رجاء
وكنت أخال الناس إلا أقلهم   كراماً إذا هم كلهم لؤماء

وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الأغاني المرحة تحل به أحياناً الروح العلائية فيصبح متظلماً من الحياة وأبنائها :

كثر اللؤم في بني الانسان   وقسا قلبهم من الأضغان

وبعد أن يعدد مساوئ الحياة من غدر وظلم وقسوة وسلب يدعو الطبيعة إلى البكاء على الإنسان. وعلى طريقة المعري يصرّح ان لا خير إلاّ في امحاء هذه الدنيا من صفحة الاكوان :

إن دنيا تضج باللؤم أولى   بامحاء من صفحة الأكوان

وإنك لتحسّ بهذه الروح المتبرمة في كل الأقطار العربية حتى في المهاجر الاميركية ولعلها بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خياليتهم الشرقية بالمادية الغربية .

فجبران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو ديناً . وفي مواكبه يصرّح قائلاً :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا   والشرّ في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا   به ويستضحك الأموات لو بصروا

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه ۔ إلاّ الأُلى لهمُ من زرعه وطر

وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلاّ في الطبيعة بعيدة عن صخب المدن وتكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدّي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له . ومثلهُ فوزي المعلوف في قصيدته على بساط الريح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر . وقد تجاوزت هذه الروح العلائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سائر الاقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواهما وتغلغلت في نفوس النشء الجديد .

وكما تنبعث روح أبي العلاء في عصرنا بالتشاؤم تنبعث بالحيرة أو النزعة اللاأدرية . ويكفي للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي « الطلاسم » وقصيدة الرصافي « من أين من أين يا ابتدائي » والزهاوي « حول الحقيقة » . ويمثل ذلك قول الزركلي من قصيدة « في سرّ الوجود أو الحياة » :

ما أمامي؟ حيرة لاتنتهي ما دام هذا الليل ليلْ لجّة مزبدة أم نَهَر معتكر أم هو سيلْ

وقد تصل هذه اللاأدرية في الصافي النجفي حدود الإنكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها. فهو يقف هناك موقف المتهكم من اليقينيين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى أمر واقعي.

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض ، بالعمل دون العقيدة . ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر العصري في كل الأقطار العربية ، وهي أوضح من أن أمثّل لها في هذا المقام . وقد دعت إليها دواعي المدنية الحديثة المبنية على روح العلم والنظر الحرّ إلى الحياة . وأوقدها في الأدب حدثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل . فهذان الحدثان كانا مبعثاً لتموجات أدبية مندفقة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام . وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالاً بالعاطفة القومية . فالمعري لم يعنَ بهذه الناحية الخاصة ولم يكن في بيئته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت . أما الأدب الحديث فيجعل الدعوة إلى جوهر الدين والتعالي عن القشور الفارغة والأنظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر ، وهنا تشتبك السياسة بالدين أو الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب العنعنات الطائفية الحائلة دون الاتحاد القومي . وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزو كثيرٍ من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر المعرة أسرفوا هم أيضاً وأطلقوا لأقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان .

ومن أمثلة هذا الإسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها «الثورة الأدبية» قال:(١)

«وأما الكهان ياسادتي فهم أول من عاثوا في الأرض فساداً. هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتغرير . هم أول من استولوا على الأمراء والملوك وأيدوا سلطانهم بأنباء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الأديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الأدبية» . إلى أن يقول : «على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصبَّ أشعيا نار غضبه في أورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويقهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزمت رعود دانيال في بابل . على تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون» .

وكما كان الأدب العلائي ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الأزلي وينفر من التدجيل والأوهام هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الأدب الحديث برغم ما يشمله من ظلام التشاؤم والحيرة مسحة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايمان بمقدرة الإنسان على التقدم . وقد مرَّ معنا أن المعري لم يكن جبريًّا مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للإنسان بشيء من حرية الإرادة في التصرّف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايمان بمقدرة الإنسان كما نراه في الأدب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف الوهن والتردد :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلاّ من راغب في ازدياد

أما الشاعر الحديث فينزع إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى في الحياة ما يستحق السعي لأجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم قتامها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلاّ بإرهاف العزم واطّراح الخوف والاقدام على المصاعب. وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :

انضُ عنك الحذار من حادث الدهـ ـر فليس الحذار يغني فتيلا
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلا
ويقول : هو العيش كالحسناء تبغض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
بدا لي أن لا سعد إلاّ تصبّر تقرّبه في النائبات صدور
وعزمٌ وإيمانٌ وطبعٌ وحكمةٌ ورأيٌ بآلاء الحياة خبير

فالكدّ والجرأة والصبر هي مفاتيح الحياة المثلى ، وإذا صحّ ذلك فالحياة التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جديرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطراح كل ما لا يقبله العقل السليم ، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد التخلص

---

(١) راجعها في الريحانيات ٢ — ٤٣

المطلق من كل ما يقيد النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المطرد. ويتمثل لنا ذلك في جبران ومدرسته. فالتمرد عنده ليس هدماً فحسب بل هو الخطوة الأولى في سبيل البناء الأثبت وهو التخلص من العوائق التي تعوقنا عن النمو إلى ما هو أفضل (١). وفي هذا الجهاد والسعي نحو الأفضل تنكشف لنا معاني الحياة الحقيقية. فاللاأدرية الحديثة مع اعترافها بجهل الانسان للحقيقة ترى لزاماً عليه ابتغاءها أو الطموح إليها إذ على هذا الابتغاء والطموح تقوم دعائم العمران والتقدم.

ويكثر في أقوال المحدثين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر موضعي نحصل عليه من الخارج. فالبعض يلتمسها في القناعة والبعض في بساطة العيش والبعض في الالتجاء إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحدهم (٢): «لذاتنا في الشوق لا في الوصال» ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله. أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الأدب الغربي، ولعلّ غوته في روايته فوست هو أعظم من أثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين. (٣)

ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حياً في نفوس المفكرين. ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبي ولكن من سبيل آخر. فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي. ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان، عن الشرائع والعمران، عن الأكوان وما وراء الأكوان.

ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواحٍ مختلفة من الفن الشعري، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الأجيال. ولماذا؟ أليس لأنهُ يطبع شعره بطابع الصراحة والاخلاص، ولأنهُ ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين:

فلتفعل النفس الجميل لأنه   خيرٌ وأحسن لا لأجل نوالها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الأجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان، وبادت أمم وبلدان، ولكن روحه لا تزال حية لأنها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان.

---

(١) راجع مقالة البنفسجة الطموحة في العواصف (٢) يوسف غصوب في القفص المهجور ١٤٩

(٣) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتابه فيض الخاطر ٣ — ٩٤ فهو حري بالمطالعة)

ملاريا

malaria

حمى البرداء ومقاومتها

للدكتور بشير العظمة

رئيس السريريات الطبية في معهد الطب بدمشق

كان الطب الوقائي وما يزال غاية عزيزة من غايات الطب، فانهُ بالرغم من معرفتنا لعدد من الادوية الناجعة ضد بعض الامراض لا نزال عاجزين عن تعقيم الجسم أو تنقيته من جميع آثار تخريب الجراثيم متى صالت عليه .

كانت البرداء أو الطاعون الأخضر منذ قديم العصور أخطر جائحة هددت كيان الجنس البشري، فهي متى ظهرت في بقعة من الأرض زادت الوفيات في المنطقة الموبوءة بعضها بالبرداء والبعض الآخر بتسهيل البرداء لفتك العوامل الممرضة الأخرى . وزيادة الوفيات بين الأطفال خاصة وهرب من تبقى من الكهول على قيد الحياة من المرض والموت يؤديان الى قلة السكان فتقفر الأرض وتبور زراعتها وتشتد وطأة البعوض على العدد القليل الذي جالد فبقي في تلك الناحية، وإن نقص السكان ونقص الحيوانات الداجنة التي تقل مع خراب الأرض وحاجة البعوض الخبيث إلى الدم بأي ثمن تجعل أجسام المتخلفين في الأرض المقفرة فرائس يتهالك آلاف البعوض على الوصول إليها . فالبرداء تخف وطأتها في المناطق المأهولة عما هي عليه في المناطق القليلة السكان ، كما أن الفقر والجوع عونان للبرداء في عملها الفتاك . ويقول المثل الإيطالي : إن علاج البرداء في القِدر قبل كل شيء .

من الثابت أن انتشار البرداء في بلاد اليونان كان من العوامل الفعالة في الاجهاز على مدنية طالما فاخر بها التاريخ القديم ، فان هذا العرق البشري الذي اشتهر بقوته وحسن بنائه هو اليوم شعب هزيل نحيل لا يفترق عن غيره من الشعوب المتأخرة ، كل ذلك نتيجة إصابة أجداده بالبرداء واجتياحها مناطق كان الري والعمران فيها مما تغنت بهِ القرون زمناً طويلاً .

ومالنا نذهب بعيداً والشواهد ماثلة للعيان في بلادنا ، فأرض الشام درة إمبراطورية الرومان ومن قبلهم من الحثيين والفرس واليونان حتى صدر الاسلام كانت أرضاً مشهورة بخصبها وعمرانها ، فقد كان عدد سكان هذه البقعة من الشرق الأدنى على ما يقرر المؤلفون عشرين مليوناً من الأنفس، وما ازدهار تدمر والبتراء ودور ادروبوس (خرائب الصالحية عند الفرات اليوم) وبعلبك وجرش وغيرها من آلاف القرى المندثرة إلاّ شواهد على ما كانت عليه بلاد الشام من ازدهار وعمران . وقد كانت أفامية وإنطاكية من أعظم مدن

السلوقيين والرومان، بل كانتا عاصمتين كبيرتين، وتقع خرائب أولاهما في وسط ما نسميه اليوم مستنقع الغاب الرهيب، وتقع ثانيتهما في منطقة مستنقع العمق الوبيل .

وليس من الضروري أن تصاب البلاد بنكبة لتندثر معالم مدنيتها التي عاشت قروناً طويلة، بل يكفي أن يهمل الري فيها زمناً ما لتصبح قفراً يباباً موطناً للبعوض ومقبرة للبشر سكانها . فالفناء رابض أبداً إلى جانب البقاء ، والتبدل على قيد غلوة من الاستقرار .

وهناك برهان عكسي على ما أقول ، وهو أن البعوض يتراجع متى تقدم العمران وكثر السكان، فإن منطقة جزيرة ابن عمر الموبوءة بالبرداء دخلها عام ألف وتسعمائة وثلاثين أقوام لاجئون من المناطق المجاورة عُنوا بأمور معاشهم وتوافر لهم الغذاء والكساء والدواء فعاشوا في الجزيرة الموبوءة وعمروا مدناً لم تعرف قبل ذلك إلاّ بأنها قرى صغيرة لا يمكن للبشر أن يعيش بها . فبلغ عدد سكان القامشلية عشرين ألفا أو يزيدون ، وكان من نتيجة عمران الزراعة وازدهارها حولها نقص إصابات البرداء فيها .

فالكفاح بين البعوض والإنسان أو بين الخراب والعمران قديم العهد وهذا العدو الصغير المستكين عدو خطر قضى على مدنيات قديمة أو سهل السبل إلى ذلك . فكفاح البرداء في بلادنا كفاح ضروري للبقاء، وليست مشكلة البرداء مشكلة اليوم ولا الأمس القريب بل هي خطر لا يزال يهدد بالفناء سكان هذه البقعة منذ قرون كثيرة .

ينتقل عامل البرداء بين البشر والبعوض الخبيث فقط، ويكفي للقضاء على البرداء ومكافحتها كفاحاً ناجحاً القضاء على معين الحمة في أحد الطرفين .

لقد كافحت إيطالية البرداء المستوطنة بعض أرجائها بما سموه إصلاح الأرض bonification ولم تفكر في النفقة التي اقتضاها هذا الإصلاح، كما ان أميركة عند ما أخذت في كفاح البرداء في منطقة قناة باناما لم تنظر إلى تكاليف ذلك . فإذا كان ذلك جائزاً وممكناً في البلدين حيث المناطق الموبوءة محدودة فإن التفكير في ذلك أي في القضاء نهائيًّا على البرداء بإزالة جميع ملاجئها في سنة أو سنين معدودة حلم بعيد المنال في بلاد أكثر مناطقها موبوء. فالمشكلة المالية أكبر من أن تسوى وتكاليف تجفيف مجامع المياه وإصلاح شطوط مجاريها وتنظيم الري المهمل منذ قرون بعيدة ووفرة مياه أرضنا، كل هذا يجعل التفكير في إصلاح أرضنا إصلاحاً أساسيًّا كما ذكرت أمراً لا يمكن تحقيقه إلاّ بصورة تدريجية .

وأما محاولة الأمر الثاني أي معالجة جميع المرضى المصابين مرة واحدة حتى الشفاء التام فإن عدد هؤلاء المصابين قد يبلغ في بعض البقاع الموبوءة مئة في المئة من السكان ولا يقل في أكثرها عن ستين إلى سبعين في المئة منهم، فمعالجتهم مرة واحدة حتى تعقيم أجسادهم مما

تحمل من مصوّرات أمرٌ عسير . فإن مداواة المريض بالبرداء المزمنة قد تقتضي عناية متصلة مدة أشهر أو سنين كثيرة إذ تختبىء المصورات غالباً في أعماق الأحشاء فلا تنالها الأدوية .

وتنتظر الفرصة المواتية للنكس، وقد شوهدت حوادث نكس بها الأنتان البردائي بعد مرور عشر سنين وعشرين سنة الى ستين سنة من الاصابة الأولى برغم ابتعاد المصاب عن المنطقة الموبوءة طول هذه المدة ، فتعقيم أجسام البشر مما يحملون من عوامل البرداء أمرٌ خيالي لا يمكن تحقيقه أيضاً . فغاية الكفاح في بلادنا يجب أن تكون بمنع تحول البرداء المستوطنة السليمة في منطقة ما إلى برداء خبيثة وأن تكافح البرداء الخبيثة لنجعل منها برداء سليمة. وتلخص طرق هذا الكفاح في ما يلي هذا : ١ — في المناطق التي لا تخشى فيها إصابة الشخص بعدوى جديدة تجب معالجة المريض حتى شفائه التام . ٢ — في المناطق التي يتعرض فيها الشخص إلى انتانات مكررة يجب أن تقتصر المداواة على شفاء النوبات الحادة شفاءً سريرياً ولا فائدة من معالجة المريض حتى الشفاء النهائي إذ سيتعرض لإصابة جديدة حين توقف المداواة . ٣ — وقاية الأطفال والكهول المسالمين المعرضين للإصابة .

وإذا كان سكان المنطقة الموبوءة هم سكانها في القديم أعني حاملي المناعة النسبية prémunition عولج المرضى منهم كما ذكرت حتى شفاء الأعراض الحادة . أما إذا كان سكان المنطقة لا يحملون مناعة نسبية لأنهم غرباء أتوا للعمل بها من منطقة غير موبوءة فهم أشخاص معرضون للإصابة بأشكال خطرة كثيراً ما تكون مميتة . ويكتسب الشخص المناعة النسبية ضد البرداء بعد أن يعيش مدة لا تقل عن خمس سنين في المنطقة الموبوءة فلا تظهر البرداء في هذا الشخص بعد ذلك إلاَّ بنوبات سليمة عارضة أو أنها لا تظهر بأية ظاهرة سريرية .

ويتعرض الأطفال للإصابة غالباً إصابة مميتة ، فيجب أن توجه العناية لهم فإن أبدانهم الغضَّة الفتية لا تعرف كيف تدافع عن نفسها كما اعتاد ذلك الآباء . فالوقاية الدوائية توجه إلى الأطفال جميعاً وإلى الأغراب عن المناطق الموبوءة، ومداواة المرضى بغية كفاح البرداء يجب أن تقتصر على شفاء الظواهر السريرية في المستوطنين، وتكون بتعقيم الجسم من آثار المصورات للذين يعيشون بعيداً عن المنطقة الموبوءة حذراً من انتشار البرداء في مناطق سليمة .

وإذا شوهد أن حمة البرداء شديدة وجب فرض نطاق صحي barrage sanitaire خوف انتشار وباء مخيف ، فالبعوض الذي لا يقوى على الطيران إلا مسافات ضئيلة قد يقوم البشر عنه بنقل المرض إلى مناطق بعيدة جداً عن البؤرة الموبوءة .

فإذا أدت وسائل الكفاح التي أجملتها إلى زيادة عدد السكان انقلبت المشكلة رأساً على عقب ، فازدهرت الزراعة وتحسن العمران وانسحبت البرداء تدريجياً حتى يقضي عليها

نهائيًا . ولن يقضى عليها قضاءً مبرماً إلاّ متى صلح حال الأرض ومن عليها .

ولتنظيم العلاج في المناطق الموبوءة تؤسس مستوصفات بسيطة يعالج بها المرضى مجاناً وأحياناً بالرغم منهم أو على الأقل بالرغم من إهمالهم وتهاونهم . ويقوم على هـذه المستوصفات طبيب يساعده ممرضون جوّالون لكل منهم دراجة بخارية أو دابة على حسب طبيعة الأرض ومجهر لفحص دماء المرضى. يأخذ الممرضون الجوالون الدم من المرضى وبعد الفحص عنهُ يشير الطبيب على ورقة خاصة بالدواء اللازم فيأخذه الممرض الجوّال ويوزع العلاج على مستحقيه . ويراقب الممرضون الجوالون مجامع المياه الصغيرة المهملة أو الري المهمل الذي يترك فيه فلاحو القرى المياه ليالي وأياماً كثيرة تسير كما تشتهي في أرض غير مستوية ، ويعلّم هؤلاء الممرضون القرويين كيف تنتشر البرداء وكيف تتقى فان معرفتهم بذلك تسهل جدًّا مهمة الكفاح وتجعل من السكان مناصرين للمشروع لا حرباً عليه . ولهذه الطريقة فوائد كبيرة إذ لا تتطلب من المريض نفقة ولا جهداً وخاصة في المناطق التي يؤمها العرب الرحل ولا تجعل من الطبيب موظفاً لتوزيع الكينين ، وتوفر على الدولة مبالغ كبيرة هي فروق الرواتب بين عدد من الأطباء وعدد مماثل من الممرضين المدربين ، ويكون نظام العمل فنيًّا فيوفر ذلك مقادير كبيرة من الأدوية . في كل قرية من القرى المجاورة للمستوصف يراجع المرضى القادرون على التنقل طبيب المستوصف مرتين أسبوعيًّا ويحمل الممرضون الجوالون المصابين إصابة شديدة إلى المستوصف للعناية بهم في أسرة تجهز لذلك كما يراقبون تعاطي الأدوية الموصوفة أمامهم.

أما توزيع الكينين أو غيره دون رقابة علمية ودون التفريق بين المرضى ففيه إسراف كبير ولن يكون من نتيجة ذلك القضاء على البرداء ولا التخفيف من إصاباتها بل هو تبذير للمال وتبديد للأدوية وتخدير للأعصاب لا للبرداء ، فان هـذا المرض المستوطن منذ أجيال كثيرة في أكثر بقاع أرضنا لن يقضى عليه ولن يحد من نشاطه ملايين حبات الأتبرين ومعه الكينين الذي يوزع دون نظام دقيق وخطة مرسومة تطبق تدريجيًّا وعلى مراحل طويلة في المناطق الموبوءة حتى يقضى نهائيًّا عليه .

أما البعوض وهو صاحب البيت الذي استوطن بلاد الشام كما ذكرت منذ أحقاب بعيدة فأكثر سكان البلاد دخلاء عليه في موطن يجد من كثرة مياه أرضه واتساعها ما يجعله يقاوم بدون عناء كفاحنا، فالتفكير في القضاء على البعوض مرة واحدة عبث لا جدوى منه . وقد باءت تجربة الانكليز في تجفيف مجامع المياه في مكدونية بالإخفاق المروع بعد أن أنفقت في سبيل ذلك مبالغ طائلة . فلنقتنع من كفاح البعوض بازالة مجامع المياه الصغيرة القريبة من المدن والقرى والتي تفيد إزالتها الزراعة، وكذلك إزالة المواقع المائية التي تترك نتيجة إهمال

السقي وهي ملاجىء للبعوض يسهل ردمها وتستفيد الزراعة من ذلك أيضاً. ولا بدَّ قبل بدء كفاح البعوض من دراسة أنواعه فإن للبعوض الخبيث مائة وخمسين نوعاً تنقل ستة وثلاثون نوعاً منها البرداء وإن هذه الانواع تختلف في طرق معاشها وتفريخها وكل ما يتصل بحياتها اختلافاً بيناً . ولهذه الدراسة شأن بعيد في نجاح الكفاح . وقد يستفاد من تكثير بعض أنواع السمك الذي يتغذى بيرقات البعوض في التقليل منهُ في مجامع المياه التي لا يمكن تجفيفها، وأحسن هذه الأنواع النوع الأميركي Gambustion Halbrooki وهو سمك صغير يتكاثر بسرعة في المياه الراكدة ولاسيما أيام الصيف والخريف ويزهد فيه الصيادون فلا يلاحقونه . على أنه ينبغي أن نصرف العناية إلى شطوط المياه فنتعهدها ونعتني بغرس أشجار الأوكاليتوس وخاصة في الأماكن التي يكون بها مستوى الماء مرتفعاً. فتمتص هذه الأشجار ماء الأرض ، على أن يحترس من إحداث غابات كثيفة في هذه المناطق إذ أن مجامع المياه في وسط الغابات هي خير الأماكن لتفريخ البعوض وتكاثره .

وقد ساعد هذا التشجير وازدهار الزراعة في فلسطين على نجاح كفاح البرداء .

ويعمد في الينابيع القليلة الماء الراكدة تقريباً إلى طريقة لطيفة طريفة لمنع تفريخ البعوض فيها، وذلك بأن يحفر مجريان متوازيان يجري الماء في كل منهما أسبوعاً فقط وعندئذٍ تموت اليرقات التي قد توجد في الماء قبل تمام نضجها .

ولا يعتمد على البترول ولا أخضر باريس إلاَّ في كفاح البعوض بصورة مؤقتة في مجامع المياه الصغيرة أيضاً بانتظار تجفيفها ، فإن هذه الطريقة كثيرة التكاليف ويرجح المازوت على البترول الصافي لقلة تبخره ويحسب ١٥ سم ٣ لكل متر مربع بشرط أن لا تزَال الأعشاب والطحالب من سطح الماء وأن يحرك لينتشر البترول على جميع السطح ويجدد رش البترول كل خمسة عشر يوماً في الربيع والخريف وكل عشرة أيام في الصيف . أما كفاح البعوض الكهل فيكون بتجهيز البيوت بوسائل الدفاع السلبي من مناخل وأبواب محكمة الاغلاق والنوم داخل الكلال ، فإن أقل فتحة في الكلة أو النافذة كافية لوصول البعوض المتعطش للدم إلى فريسته . يفتش عن البعوض الكهل خلف الستائر والأثاث خاصة أيام الشتاء حيث قد يقضي البعوض الشتاء في المنازل ينقل المرض من المريض إلى السليم، فالقضاء على أفراده الشاتية قضاء على آلاف أو عشرات الألوف من أنسالها . وينتبه في كفاح البعوض الكهل إلى تطهير القاطرات والطائرات والسيارات قبل سفرها من منطقة موبوءة وعند وصولها إلى منطقة سليمة، فربما رحل البعوض في وسائل النقل هذه حاملاً البلاء تحت أجنحته كما حدث ذلك في العام الماضي في صعيد مصر . وعلى الذي يضطر للمبيت في منطقة موزغية أن يبتعد عن القرى

الموبوءة ومجامع المياه فيها مسافة لا تقل عن ٢ — ٥ كيلو مترات . على أن أسباب الحيطة الشخصية مهما بولغ في إتقانها قد لا تمنع عن الشخص الإصابة بالبرداء ، فإن البعوض الفتي يسعى إلى فريسته في الظهيرة وخاصة في الغرف المعتمة أو المناطق المشجرة الكثيرة .

يعطى من يتعرّض مؤقتاً للإصابة ٠ر٤٠ سنتغرام يوميًّا من الكينين، ويرى البعض أن إعطاء ٠ر٥٠ سنتغرام كل ثلاثة أيام أو غرام كامل كل أسبوع فقط مقدار كاف للوقاية أو يعطى بدلاً من الكينين الأتبرين بمقدار ثلاثة أقراص كل خمسة أيام .

واذا هددت جائحة البرداء بالاستيلاء فإن من التدابير السريعة التي يلجأ إليها في القضاء على جائحتها توزيع الأدوية على سكان المنطقة جميعاً للوقاية مرة في الأسبوع ثم كل عشرة أيام ثم مرتين في الشهر. وقد نجح هذا التدبير المؤقت نجاحاً باهراً في وقف الجائحات الاستيلائية في تونس وإيطالية . وقد امتاز الأتبرين عن الكينين في تأثيره الواقي للبرداء بعد التجارب التي أجريت في الهند الصينية وخاصة إشراك الأتبرين مع البلاسموشين، ويحضر للاطفال مركب يدعى بالشوكولاتين تحوي القطعة منه على ٠ر١٠ سنتغرام اريستوشين ممزوجة بالشوكولاته وهي سهلة الاستعمال لذيذة الطعم .

إن لكل بلد موبوء بالبرداء معهداً لدراستها العلمية تدرس فيه أنواع البعوض الناقل وطرق معاشه ومناطق تفريخه وأشكال البرداء ومناطق توزعها في الاقليم، وتقرر هذه المؤسسة بناء على المعلومات التي توصلت إليها طرق الكفاح الواجب اتباعها، فهي بمثابة أركان الحرب دماغ الجيش، ولاسيما أنهُ ليس هناك قواعد مقررة لكفاح البرداء بل تختلف الأساليب التي تتبع باختلاف الأرض والسكان . وتتولى هذه المؤسسة تنظيم دروس سنوية للأطباء الموكلين بالكفاح وتهيئة العدد اللازم من المرضين وتنبيه الرأي العام والحكومات إلى ضرورة هذا الكفاح ونفعه بالمحاضرات والاعلان والخطابة، كما تعلم أساتذة المدارس وموظفي الحكومة في المناطق الموبوءة ليكونوا عوناً لها. فالبرداء في بلادنا التي كانت قديماً مصدر خراب لا تزال تهدد الثروة الوطنية والإنتاج الزراعي والصناعي بجائحاتها التي تفتك ويشتد سعيرها أيام الصيف وأيام الخريف أيام العمل المثمر، فهي تكلف الثروة العامة سنويًّا بين فرائس تقضي عليهم بالموت ومرضى تحبسهم عن عملهم وأدوية تصرف في سبيل ذلك مبالغ من المال إذا أردنا تصورها أعجزتنا الأرقام في مقاربة الحقيقة مهما بالغنا فيها، فليست المبالغ التي يمكن أن تنفق أو تخصص سنويًّا في موازنة الدولة لكفاحها والجهد الذي يبذل في سبيل ذلك إلاّ شيئاً ضئيلاً مما يجب علينا ، فكفاح البرداء عمل اقتصادي وطني جليل .

أنواع القطن

وتخصيص مناطقها *

ليوسف فارس

لا يفوت أحداً — زارعاً كان أو تاجراً أو غازلاً — أن يلاحظ أن أنواع القطن المختلفة جعلت تظهر وتختفي بسرعة تثير القلق في نفوس من تتصل أعمالهم بالقطن من قريب أو بعيد ، وقد أدّى ذلك إلى التفكير في علاج تلك الحالة، فهل يكفي في علاجها أن نكثر من الأنواع حتى لا ينقرض نوع إلاّ ظهر لهُ بديل ؟ وهل تصل بنا هذه السياسة إلى الغاية المرجوة من الحصول دائماً على أنواع قطنية جيدة تلائم مصلحة الزارع والتاجر والغازل جميعاً ؟ ليس ثمة خلاف على أن السعي الدائب لاستنبات أنواع جديدة من القطن أمرٌ لا ينكره أحد ، بل إنهُ لخليق بالتقدير والتشجيع . بيد أن نتائج هذا السعي غير مقرونة دائماً بالنجاح ، فكثيراً ما ينشد العالم النباتي نوعاً من الزرع يتميز ببعض الصفات ، وقد يوفق إليهِ في بعض الأحيان ، فيعيش هذا النوع مدة طويلة أو قصيرة من الزمن ، ولكنهُ على الأيام يفقد صفاته كلها أو بعضها ، فلا يلبث أن يزول ويصبح أمراً قد كان . وإذن فالنجاح في استنباط الأنواع في كف القدر ، وقد يخلف الغيب الظنون !

فعلينا إزاء ذلك أن نفكر في طريقة أخرى غير التهافت على الإكثار من الأنواع الجديدة ، وليس لدينا من طريقة سوى الاحتفاظ بالأنواع التي نتداولها جهد المستطاع، على أن من المشكوك فيه أن يستمر علماؤنا النباتيون في استنباط أنواع تفوق ما لدينا الآن ، وربما مرت بهم فترة لا يحصلون فيها على نوع مستحسن . وقد يتفق أن تقع تلك الفترة في وقت يتدهور فيهِ نوع على غرّة ، ويصبح على وشك الزوال من الحقل، وذلك على نحو ما حدث منذ عشرات السنين ، فكيف يكون الموقف عندئذٍ ؟ إما أن نمضي في زراعة النوع الذي فقد صفاته فكسدت سوقه فيخسر الزراع وتخسر من ورائه البلاد ، وإما أن نلوذ بنوع عاديّ الصفات أو غير ثابتها مما يكون لدى الفنيين ، فنزرعه على مضض، وهذا شرّ من الفرض الأول ، ولنا في الماضي عبر ما برح يذكرها كثير . فاتقاء هذا الشر ميسور إذا اتبعنا سياسة الاحتفاظ بصفات أقطاننا الممتازة أطول زمن ممكن ، وفي خلال هذا

---

* قدم هذا البحث الى لجنة « بورصة مينا البصل » بالاسكندرية ، وصاحب البحث من أعضائها.

الزمن الطويل يتسنى للنباتيين أن يستنبطوا على مهل أنواعاً طيبة مركزة الصفات تركيزاً ثابتاً ، فإذا دفعوا بها إلى الحقول والأسواق كانوا واثقين أنها بصفاتها الثابتة المركزة لا تتزعزع ولا يدركها التدهور العاجل الذي أدرك النوعين : المسمَّى بالفؤادي والمسمَّى بالوفير ، وغيرهما .

***

يعزو بعضهم التدهور إلى النبات نفسه ، ويعزوه بعضهم إلى الجو ، ويرى آخرون أن التدهور راجع إلى التربة أو إلى المياه الجوفية مع علاقتها بالصرف وما إلى ذلك . وقد تكون هذه الأسباب على جانب من الصحة ، ولا سيما إذا ارتبط بعضها ببعض ، واتفقت في المكان والزمان والحال ، ولكنها ليست فيما نرى السبب الأكبر لانحطاط ما يستجد من أنواع القطن ، وحسبنا على ذلك دليلاً أن نوعاً يزرع في مصر العليا من نحو نصف قرن ولم يدركه التدهور ، وهو الأشموني . وهذا النوع المحتفظ بصفاته يقبل فلاح الصعيد على زرعه وجنيه ، ويشتريه تاجر القطن راغباً فيه ويفتش عنه الغزال في كل حين . فهذا الأشموني قطن ممتاز ، وصفاته الحسنة باقية ، وفضائله ثابتة ، مع أن الأنواع التي من عهده أسرع اليها الزوال فانقرضت ، وآخرها « السكلاريدس » الذي أخذ يهجر الحقل بعد ملازمة طويلة ، وقد يقال إن الاشموني هو النوع الوحيد الذي ثبت حتى الآن في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة دون الأنواع التي سبقته أو نجحت في عهده (١) .

فما سر ذلك وما سببه ؟ خيرٌ لنا أن نلجأ في الجواب عن هذا السؤال إلى البحث المقارن بين الأشموني وزراعته في الوجه القبلي وبين الأنواع الأخرى وزراعتها في الوجه البحري . أما الفوارق بين الوجه القبلي والوجه البحري من حيث الجو والتربة والري والصرف والدورة والمعاملات الزراعية ونحوها فلن يبلغ بها التباين أن تؤدي إلى التأثير في صفات النبات حفظاً أو ضياعاً .

اختصت مصر العليا بزراعة الأشموني مستقلاً دون غيره في الحقول إلاَّ ما سمي بحقل التجارب ، وذلك بخلاف سائر الأنواع في مصر السفلى فانها تزرع فيها بعضها بجوار بعض ، وإن هذا لهو الفارق العظيم بين الوجهين : القبلي والبحري . ففي حقول الصعيد كلها نجد ذلك النوع الواحد ، وأما في الوجه البحري فالأنواع المختلفة مزروعة في حقول متجاورة ، وقد نرى في البلدة الواحدة أنواعاً متعددة ، وأيضاً في الضيعة الواحدة . ولما كان القطن من النبات ذي الزهرة التي تقبل التلقيح بالعوامل الطبيعية فمن اليسير أن نستنتج أن زرع أنواعه المتعددة في حقول متلاصقة يساعد على التلقيح الخلطي ، وذلك مؤدٍّ إلى

---

(١) نقول على سبيل التذكرة إن اسم الزاجورة كان يطلق على نوع الأشموني المزروع في الوجه البحري بمصر .

التهجين الطبيعي ولو بنسبة ضئيلة كل سنة، وقد تبلغ هذه النسبة خمساً في المائة، فاذا انقضت عشرون سنة أصبح القطن من نوع آخر.

وربَّ قائل يقول: أليس السكلاريدس ناجماً من هذا التهجين الطبيعي، فما بالك تنكره؟. فأقول إن التهجين إنما يحسن إذا خصصت لهُ حقول تجارب يتولاها الفنيون، فأما أن تكون أرض مصر كلها حقول تهجين فذلك هو الخطأ الوخيم العقبى. ولقد زال السكلاريدس من حيث نشأ، فالعامل الذي أحياه هو العامل الذي أماته. وقد انقرضت قبله تلك الأنواع التي كان لها الفضل في شهرة القطن المصري، أمثال النوباري والعفيفي واليانوفتش وغيرها، وربما انقرض على نحوها الوفير ولحق بهِ الكرنك والجيزة (٧) وكل ما قد يظهر من بعد إذا اطردت الحال على هذا المنوال.

وهناك أيضاً سبب شديد هو قيام المحالج بحلج أقطان من أنواع مختلفة. فالعناية في المحالج مهما تكن بالغة من حيث النظافة والنظام، لا يمكن معها الجزم بأنهُ لن يحدث خلط بين أنواع البذرة حين تتوالى الأقطان على المحلج وتمر مختلف البذور في الغرابيل واحدة بعد أخرى

فإذا ابتغينا الاحتفاظ بأنواع القطن فلزام علينا أن نحدد مناطق خاصة للأنواع المختلفة ما أمكن ذلك. وبتحديد كل منطقة لنوع ما سيخصص محلج المنطقة لهذا النوع وحده فيؤمن الخلط، ولا ريب أن لهذا الإجراء تبعاته من الإضرار ببعض الأفراد، ولكن المصلحة الفردية تهون بجانب مصلحة الجماعة ومصلحة البلاد.

إن فوائد هذا الاقتراح إذا أُتيح لهُ التنفيذ جديرة أن تحل من التقدير أكرم محل. إلاَّ أن بعض الزرَّاع قد يعترضون عليه من الوجهة الاقتصادية، فهم يصبحون بهِ طوع سعر لنوع واحد، وهذا شأن زرَّاع الوجه القبلي، فإنهم كما قدمنا لا يزرعون إلاَّ نوعاً واحداً. ونحن نعلم أن أنواع القطن تتفاوت أسعارها زيادة ونقصاناً بحكم الأسعار العالمية وعوامل المضاربة، وقد شاهدنا في الماضي كيف زاد سعر الأشموني على سعر السكلاريدس، على أن النوع الذي يقل سعره الذاتي عن غيره يكون إنتاجه أقوى والعكس بالعكس، فكأن الطبيعة بهذا تقيم بين النباتات ميزان عدل.

أضف إلى هذا أن الفلاح الصغير يوجَّه عادةً إلى زرع نوع دون نوع بغير دافع من الإنتاج الزراعي نفسه، بل بتأثير من التاجر الذي ييسر لهُ البذرة للتقاوي. وقد يكون هذا الفلاح الصغير على غير علم بالنوع الذي يجود أكثر من غيره في منطقة أرضه.

وأما اعتراض التجار وأصحاب المحالج فحكمهم حكم زملائهم في الصعيد أيضاً. وعلى أية حال فأغلبهم تهمهم الكمية لا النوع، فإذا تبين لهم أن تنفيذ هذا الاقتراح مؤدٍّ إلى زيادة

المقدار بطلت الشكوى . ولمن يرغب من التجار في شراء أنواع أخرى أن ينشئ مكاتب في كل المناطق التي تزرع النوع الذي يرغب في الحصول عليه .

والآن نلمع إلى بعض الفوائد الزراعية والاقتصادية التي يواتينا بها تنفيذ هذا الاقتراح:

الفوائد الزراعية

في علم الزارع أن لكل نبات مزايا ومطالب تختلف — ولو بنسبة ضئيلة — عما هي في غيره، وهذا الاختلاف قائم بين الأنواع حتى لو كانت من فصيلة واحدة ، وأنواع القطن أشد من سواها اختلافاً في المعاملات الزراعية مثل طريقة الزرع ومواعيده أو تخطيط الأرض ومسافات البرك « وخف » النبات، وأنواعه تختلف أيضاً من حيث قابليتها للتسميد الفني أو عدم قابليتها ، ومن حيث الري الكثير أو القليل ، وجودة الصرف وضعفه ، وكذلك من حيث مناعتها من الأمراض ومقاومتها للعواصف الجوية ، ومن حيث مواعيد الجني وطرقه . وبعض أنواع القطن تختلف عن بعض من الوجهة النباتية فهناك أنواع تمتاز في نموها الخضري فلا تصلح في الأراضي الموفورة الغرين ، وهناك أنواع مبكرة لا تمكث طويلاً فيستحسن فطامها عن الري قبل غيرها ، وأنواع إذا زرعت في منطقة ما بلغت نسبة تصفية حلجها درجة عالية ، وأنواع يكبر حجم بذرتها إذا زرعت في تربة خاصة ، وأنواع يؤدي زرعها في جهة ما إلى أن تنخفض في تيلتها درجة النعومة والمتانة والطول. وهذا كله يميل بنا إلى القول بأن في مكنتنا تلافي نواحي الضعف جميعاً إذا اتخذنا قاعدة تحديد المناطق ، وخصصنا لكل منطقة النوع الذي يجود فيها من مختلف الوجوه .

ومحتمل أن يكون اتخاذنا لهذه القاعدة منشأ لعامل التنافس بين الزراع في العناية والتجويد، فتوحيد النوع يغري كل زارع ببذل الجهد في إيجاد محصول أوفر كمية وأجود رتبة. فتكثير الأنواع يسقط فضيلة التنافس ، فأما التوحيد فإنهُ يحركها .

الفوائد الاقتصادية

إذا خصصت كل منطقة لنوع معين أصبح تخصيص المحالج لهذا النوع المعين أمراً محتوماً. وفي ذلك فوائد جمة :

أولاً : منع أسباب الخلط في أنواع البذرة وأيضاً في أنواع القطن وبذلك تسهل مهمة القائمين على منع الخلط .

وثانياً : عدالة التوزيع بين المناطق فيما يتعلق بمقادير القطن التي تحلج في محالج كل منطقة فلا يشحن قطن منطقة إلى أخرى ، فيستفيد بحق أهل كل منطقة من عمليات الحلج فتتعادل

المحالج وتزول أهم الأسباب التي تؤدي إلى أن تتوقف بعض المحالج عجزاً . على أن هناك محالج ستقف عجزاً عن مجاراة تيار المنافسة بين مديرية وأخرى .

وثالثاً : يصبح اختصاص هذه المحالج مقصوراً على النوع الذي يزرع في منطقتها دون سواه فتجيد حلجه مع الاقتصاد في النفقة ومع المحافظة على « التيلة » وزيادة تصافي المحلج وزيادة معدل إنتاج الدولاب الواحد .

ورابعاً : يصير التاجر أيضاً بفضل التخصيص على دراية تامة بنوع القطن في كل بلد من المنطقة في مختلف السنين ، إذ تتزايل أسباب التدهور فيبقى النوع محتفظاً بصفاته فترة مديدة فيطمئن التاجر اليه ويبتاعه بأسعار مرتفعة ، وكذلك يعود الفلاح إخصائيًّا في النوع ، وينجم عن هذا أيضاً أن نرى مقادير النوع الواحد من القطن أقرب تجانساً في التيلة واللون مما كانت عليه من قبل إذ يخلط قطن نوع واحد ناتج في الشرقية بغيره من نوعه ناتج في الدقهلية أو الغربية فلا يكون هذا الخليط إلاّ قطناً غير متجانس مهما نحكم تضريبه وحلجه . ولا مرية في أن التجانس في كل أنواع القطن يجعلها ممتازة يقبل الصانع على شرائها غير هيّاب ولا متوجس ، باذلاً لها أرفع الأثمان .

وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أن الفترة بين زوال نوع من القطن وظهور نوع آخر هي فترة خسارة على الفلاح والتاجر والصانع . فالنوع إذا أوشك أن يزول أهمل وخسّ ثمنه ، وتعب التاجر في بيعه بالخارج ، وقلق بال الصانع لمشاهدته ضعف النوع وقرب زواله مما يحتم عليه إدخال بعض التغيير في آلاته .

وإلى جانب هذا يصعب على الفلاح عند ظهور نوع جديد أن يبيعه في السوق فيضطر إلى قبول الحط من ثمنه ، كما حدث في أنواع المنوفي ، وكذلك يزهد التاجر فيه خشية بقائه في مخازنه فلا تمتد اليه يد الصانع ، كما حدث في نوع البهتيم ، فإذا قبل الصانع شراءه تحكم في سعره حتى يأخذه بأبخس الأثمان . ويظل الأمر كذلك فوضى واضطراباً حتى تتوطد قدم النوع في السوق وتظهر المنافسة حقيقة سعره كما حدث في نوع الملكي .

وقد ينشأ من كثرة الأنواع قلق التجار ، إذ يحار الفرازون إزاء الكثرة والتشابه بين نوع ونوع . وقد يساعد هذا التشابه على خلط الأقطان كما حدث بين المعرض والوفير . وتلك حالات تضايق التجار وتبعث في نفوسهم القلق حين يقدرون السعر ، فلا يبذلون إلاّ أسعاراً وأثماناً أقل من الحقيقة احتياطاً للمغالطة . وواضح من هذا كله أن تغيير الأنواع بسرعة يترتب عليه إضرار بالجميع . فمن الصواب الواجب ألاّ يحدث ذلك التغيير إلاّ بعد أطول زمن ممكن وعند الضرورة القصوى ، أو في الحالات التي يتميز فيها نوع ما من القطن تميزاً بارزاً .

عادات البولنديين وعقائدهم

لحسين المهدي غنام

كانت ملابس النبلاء وأزياء الأغنياء البولنديين تتفق وأزياء العصور المتقدمة ، وخاصة الفرنسية ، إذ كانوا يأخذون كثيراً عن الفرنسيين ، إلاّ أنها كانت تمتاز بغلاء أثمانها وأبهتها وكانت في الغالب من فراء ثمينة تشترى من روسية .

أما الطبقة الدنيا فكانت تقتنع بجلد النمر وأبي الأبرد والعُبر إذا استطاعوا الحصول عليها.

وكانت نساء الطبقة العالية يرتدينَ الملابس التي توافق مكانتهنّ السامية ، ويحلينَ رؤوسهنّ بأكاليل مذهبة وجواهر نادرة وزهور وغير ذلك ، كما أنهنّ كنّ يقتبسنَ الأزياء الفرنسية .

وكانوا يسرفون في الزينة إسرافاً بالغاً ، فكان الرجل أو المرأة يمتلك ما يقرب من خمسين حُلة للزينة ، ويزينون خدمهم كذلك ، وكانت هذه الحال تسوقهم إلى الإفلاس في الغالب.

وكان الرجال محاطين دائماً بعدد عظيم من الخدم، والنسوة بعدد جم منَ الوصائف .

وكان يُسمَّى النبلاء والأشراف الذين لا يعملون ولا يأبهون بالسياسة : « شلاختا » وكلمة (شلاختا) مأخوذة من الكلمة الألمانية (خشلخت) ، ولعلها تفيد معنى التبطل .

ومن هؤلاء (الشلاختا) برز بعض الأفراد في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وعنوا بالسياسة، فكانوا نواة لطغيان النبلاء في ما جاء من العصور !

وكان من شأن مجلس أعيانهم أن يبرم كل شيء ، فهو الذي يعلن الحربَ أو السلم . وهو الذي يجند الجيش ، ويجبي الضرائب ، ويشرّع القوانين .

ولكن الذين كانوا ينفذون الأمر هم حكام عسكريون في الغالب ، يعينهم الملك أو الأمير برتبة جنرال ، ويسمونهم الحرّاس أو المحافظين.

وكان مجلس الأعيان ينعقد كل عامين ، إلاّ في أحوال استثنائية عند الحاجة ، فيجتمع اجتماعاً خاصًّا، ثم يجتمع بعد ذلك كل خمسة وعشرين عاماً في دورة استثنائية لمراجعة ما جرى في الأعوام السابقة ... ولكنه كان مجلساً شاذًّا في الكثير من عادات أعضائه وطباعهم .

فهم يتكلمون متى أرادوا بالقسوة أو هجر الكلام ، ويعنفون حتى ملوكهم ، وسيأتي الكلام على هذا المجلس في موضع آخر . . .

وكان في المملكة ، ثلاثة عشر أسقفاً ورأسهم ، يتمتعون جميعاً باحترام عظيم عام .

ويليهم في الاحترام أمراء المقاطعات الخمسة والثلاثون ، والثلاثون محافظاً الكبار والتسعة والأربعون محافظاً من الدرجة الثانية ، وكان هؤلاء جميعاً مع عشرة ضباط يؤلفون مجلس الشيوخ .

وكان هؤلاء الأمراء والحراس والمحافظون حكاماً على الإمارات والمقاطعات طول حياتهم .

وكانوا يتمتعون بسلطة تخوّلهم توجيه مقاطعاتهم وحكمها حكماً ذاتيًّا . وإذا اجتمعوا في مجلس الشيوخ جلس الملك تحت ظلة تخيم على عرش مرتفع وجلس إزاءه القساوسة والأمراء والمحافظون في ثلاثة صفوف من الجانبين في قاعة المجلس ، وجلس من خلفهم حكام الدرجة الثانية فالضباط .

ولم يكن المُلْك وراثيًّا حتى عهد قريب ، فكان الذي يبرز من الأمراء أو يغتصب الملك بقوته ينتخب ملكاً ، حتى لو كان غريباً غيرَ پولندي !

وكان من عادة الپولنديين المتقدمين أن يحلقوا رؤوسهم ويتركوا خُصلة في وسطها ولم يركبوا اللحى مستعارة على عادة بعض الشعوب الأخرى . ولكنهم ركّبوا شوارب طويلة كانت تغطي أفواههم تقريباً .

وكانت السيدات والنبيلات يرتدينَ الأزياء الفرنسية . وكانت السيدة لا تخرج إلاَّ في عربة مطهمة تجرها ستة جياد ! حتى إن قصدت إلى الكنيسة أو ذهبت إلى زيارة من يقيم على عشر خطوات .

وإذا خرج پولندي أو پولندية من الطبقة العالية في الليل توضع على عربته أو عربتها ما لا يقل عن أربعة وعشرين مشعلاً موقدة بالشموع تنير الطريق أمام العربة ، ويحفها بعض (اليسقجية) كشأن الأتراك والمصريين في تلك السنوات ! .

هذا وكان الفلاحون يتدثرون بالجلود الخشنة والصوف الرخيص ، ويستعملون لحاء الأشجار أحذية تقيهم وطأة البرد أو غلاظة الصخور .

على أن مظاهر أبهة النبلاء والأشراف كانت أروع من الأبهة التركية في كثير من الأحوال ، وبخاصة حفلاتهم الرسمية وولائمهم ، وإن كانت موضع نظر من الناحية الخلقية .

فقد كانت عادتهم أنهم إذا أقاموا وليمة ، وجب على كل ضيف يدعى إليها أن يحضر معهُ سكيناً وشوكة وملعقة ليتناول بها طعامه ، فلم يكن من عادة الداعين أن يقدموا هذه الأدوات . وكانوا يخيطون قطعة من الكتان الأبيض في مفرش المائدة فتستعمل منشفة .

وحين يحضر المدعوون جميعاً تغلق الأبواب كلها ولا تفتح — مطلقاً — إلاّ عند ما ينتهي العشاء وينهض المدعوون وبين يدي كل واحد منهم الطبق الذي أكل فيه، وهكذا لا يفقد طبق واحد! وذلك لأن السابلة كانوا يسرقون الأواني. وكان لكل ذي مقام قاعة في بيته تكون للضيوف. وكانت هذه القاعة تضم مائدة جانبية مبنية بناءً يحيط بها درابزين ويخاط في مفرش هذه المائدة قطعة كتان، كما مرّ بك، لا ترفع حتى تصير قذرة جدًّا بما يتساقط عليها من فضلات الطعام!

وعلى هذه المائدة مكان مخصص للموسيقى التي كانت تتألف من (كمان وأرغن) . . .

وكان كل مدعو يصحب معه تابعه إلى الوليمة، وعند ما يجلس الضيف إلى المائدة يقطع نصف رغيفه ويعطيه لتابعه مع طبق مملوء لحماً، فيقف هذا الخادم وراء سيده يتناول طعامه.

وإذا طلب السيد كوب نبيذ أو كوبين، أحضر خادمه مثلها لنفسه، وشرب في الكوب الذي شرب فيه سيده.

واللحم الذي يقدّم للضيف كثير جدًّا حتى إنهُ يتجاوز حاجة الآكلين بقدر كبير، ولكن شيئاً من هذا اللحم لا يعود إلى المطبخ، لأن الخدم يستولون عليه جميعاً، وقد يعودون به إلى بيوتهم.

وكانت عادة كل سيدة أن تزوّد خادمها بمنديل يحمل إليها فيه الحلوى الجافة أو الفاكهة التي تزيد على حاجة الآكلين . . .

وبعد أن يتناولوا الطعام يرقصون على أنغام الأرغن والكمان . . .

ولعلّ الاضطهاد الذي عاش فيه الپولنديون الأقحاح والظلم الذي شملهم على أيدي سادتهم، أورثهم الخضوع للقضاء والقدر.

واعان على قيام هذه العقيدة طبيعة بلادهم الهادئة، والنهر الذي أقاموا على ضفافه، كما أن وادي النيل الوادع والظلم الذي حاق بأهلهُ في عصور الظلام الماضية أنشأ شعباً قانعاً مستسلماً في الغالب.

والپولنديون يردّدون كثيراً كلمة العناية الإلهية. فقد كانوا حتى سنة ١٨٥٥ يعتقدون أن «العناية الإلهية» أبقت لهم أميرهم الپولندي آدم تشار تورسكي، حتى يستطيع أن يتكلم باسم بلاده مطالباً بانصافها وتخليصها من غاصبيها . . .

فالعناية الإلهية عند الپولندي عقيدة، حتى في حياة الفرد العادي منهم، وقنوته ملحوظ، وخاصةً في العصور التي قسّمت فيها پولندة . . .

ومثل هذه العقيدة استحوذت على شاعرهم الأعظم آدم متسكيفتش، فقد كان يؤمن أن

« القدر » اختار الأسرة البونابرتية لإنجاء بولندة من غاصبيها جميعاً : روسية وبروسية والنمسة . . . وصار هذا الإيمان فكرة قوية ثابتة ، وصارت جزءاً من فلسفته التصوفية التي مال اليها قبل أخريات أيامه .

وكان هذا إيمان الكثيرين من البولنديين — نازلهم وعاليهم — وظل باقياً إلى الآن ، ولكنهُ انحرف قليلاً فصار افتخاراً بعظمتهم ومباهاة برجالهم .

***

قال الكاتب الانجليزي المعروف ج . ك . تشسترتُن في كتابه « أحاديث عامة » : لقد صدمتني جملتان سمعتهما لما زرت بولندة ، قالهما لي ضابط الفرسان الذي لقينا مع فرسانه لأجل حراستنا ، وكان يتكلم بلغة فرنسية صحيحة كأنه أحد الفرنسيين الأقحاح ، أما الجملة الأولى فهذه : « إني لن أدعوك صديق بولندة الأول فالله تعالى وحده هو الصديق الأول لبولندة » . والجملة الثانية قالها لي الضابط نفسه بعد قليل ، في شيء من الدعابة : « وبعد ، فلا يوجد في الحياة غير وظيفتين ، الأولى وظيفة الشاعر ، والثانية وظيفة الجندي الفارس » .

وقد ردَّ تشسترتن على الجملة الثانية مازحاً ساخراً . فقال : « إنك أنت الشاعر وأنا الجندي الفارس ! » .

وكتب تشسترتن غير هذا في وصف هؤلاء البولنديين وأخلاقهم وشعورهم ونفسيتهم فقال : « إنهم ناس ورعون يخشون الله ويتقون قتل الناس » . وكان يسمع من الكثيرين هذه الجملة : « إن الله تعالى هو الصديق الأوحد لبولندة » .

والبولندي في الغالب رجل فخور بقومه ولكنه وديع الطبع مسالم محب للخير ذو أخلاق عالية . وحبه للهدوء يجعل قومه ميالين إلى حياة الوحدة ؛ كما هي حال كثير من أهل الشرق الآن .

ويرجع فخر البولندي بوطنه إلى حب أصيل لبلاده ، وتاريخها المجيد ، حتى إذا رأى البولندي شيئاً عظيماً أو فعلاً مجيداً يفعله أي رجل نسب هذا الفعل إلى أعمال شبيهة بأعمال البولنديين ، على الرغم من هزيمة بولندة وتعاستها في العصور الأخيرة . فقد قال الشاعر الإنجليزي بلاوك يصف نظرة البولندي العليا في تقديس مقام عظيم :

« رجاء نصف المهزوم : بيت من ذهب ، ومقام سيف ، وبرج من عاج . »

المدرسة الفرُّخشاهية

للدكتور أسعد طلس

من أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق

١ — لمحة تاريخية

تنسب هذه المدرسة إلى الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن الملك شاهنشاه بن أيوب ابن شاذي، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين بن أيوب . وكان صاحب بعلبك كما كان ينوب عن عمه صلاح الدين كثيراً إذا ما غاب عن دمشق. وكان صلاح الدين يثق بهِ ويكرمه ويفضله على جميع آله، وكان شجاعاً كريماً فاضلاً له شعر جيد . قال في الروضتين نقلاً عن ابن أبي طي: « كان فرخشاه من أكرم الناس وأطهرهم أخلاقاً وأسدهم رأياً وأشجعهم قلباً، مضافاً إلى شجاعته كونه عالماً متفنناً كثير الأدب ، مطبوع النظم والنثر . . وكان من أخص خواصه وذوي اصطفائه الصدر العالم الكبير تاج الدين أبو اليمن الكندي ، أوحد دهره ، وعلامة زمانهِ ، ووزير دسته، ورفيق درسه ، وشعاع شمسه ، اجتمع بهِ في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة ، فجاء ذكر بيت لأبي الطيب ، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق ، فأعجب فرخشاه وسأل القاضي الفاضل عنه ، فقال : هذا تاج الدين الكندي ، وعرفه بفضله ، فلما قام فرخشاه أخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمهُ إلى أن توفي »(١) .

ومن جيد شعر الملك فرخشاه قوله :

أنا في إثر السقام   من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا   ه فؤادي بالسهام
كلما أرشفني فا   ه على حرّ الأوام
ذقت منه الشهد بالثلج   المصفى بالمدام

وقوله : إذا شئت أن تعطى الأمور حقوقها   وتوقع حكم العدل في حسن موقعه
فلا تضع المعروف في غير أهله   فظلمك وضع الشيء في غير موضعه

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لابن أبي شامه طبع مصر سنة ١٢٨٨ ، ص ٣٤

وقد امتدحه كثير من شعراء عصره ، من أشهرهم ابن سعدان والعماد الكاتب، فمما قاله ابن سعدان فيه :

تخذ السابري لبداً وعود الـ
زان ناباً والهندواني ظفرا
أعجمي الأنساب قصرت الأعراب عنهُ نجعاً ونظماً ونثرا
هزمت كتبه الكتائب جفلا وأعادت دجى الحوادث فجرا
فهو كالمازني علماً وكالأحنف حلماً وكالفرزدق شعرا

ومما قال فيه العماد الكاتب من قصيدة طويلة :

قد قلت للحادي وقد ناديته   في مهمه أقصِرْ وصلتَ مهِ مهِ
حتام جذبك للزمام فأرْخه   فلقد أنخت إلى ذرى فرُّخشه
متكرم بالطبع لا متكره   شتانَ بين تكرم وتكره
إحسان ذي مجد وهمة ماجد   مُجد وتقوى عابد متأوه

وقال ابن كثير : امتدحه كثير من الشعراء ، ومات بدمشق في جمادي الأولى⁽¹⁾ سنة ٥٧٨ (وقيل سنة ٥٧٩) ولما مات بنت أمه خطلخير خاتون بنت إبراهيم بن عبد الله له تربة — مدرسة ، هي بالشرف الشمالي (وقد طبع خطأ بالشرق) بدمشق ، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده الملك الأمجد وهما وقف على الحنفية والشافعية ⁽²⁾.

وقال الأسدي :« إنها على الحنفية فقط، ولكن صاحب تنبيه الطالب وغيره لم يذكروا من درس بها من الشافعية ولم يتقدم لها ذكر في مدارسهم »⁽³⁾ وقد درس بهذه المدرسة — التربة من الحنفية : العماد بن فخر الدين وابن الحريري محمد بن عثمان الأنصاري رئيس الحنفية وقاضيهم بدمشق (— ٧٢٨) . وقد ذكر هذه المدرسة وطرفاً من تاريخها جماعة ممن كتبوا في تاريخ معاهد دمشق، أولهم :

النعيمي صاحب « تنبيه الطالب وإرشاد المدارس » وقد تحدثنا عنه وعن تاريخه المخطوط فيما سبق . ثم محيي الدين عبد الباسط العلوي مختصر كتاب « تنبيه الطالب ..... » وقد ترجم المختصر إلى الفرنسية وعلق عليه المستشرق Sauvaire ⁽⁴⁾ وأخيراً جاء الشيخ

---

(١) كتاب الروضتين ٢ / ٣٤

(٢) البداية والنهاية ١٢ / ٣١١

(٣) منادمة الاطلال لبدران ، مخطوطة المعهد الفرنسي بدمشق ٢ / ٢٥٣

(٤) انظر Journal Asiatique 1894-69

عبد القادر بدران الدمشقي فألف « منادمة الأطلال » وتحدث فيه بآثار دمشق في زمنه (١)

ويظهر أن هذه المدرسة — التربة ظلّت عامرة إلى أواخر القرن الثامن ، فقد رأيت أن ممن درسوا فيها في هذا العصر قاضي الحنفية بدمشق ، ثم يبدو أنها ظلّت عامرة إلى أيام العلموي الذي كان يعيش في أوائل القرن العاشر (٢) ، فقد ذكرها وقال : إن النعيمي لم يذكر من شيوخها الشافعيين أحداً ، فهو يريد بهذا القول أن يثبت أنها خاصة بالحنفية .

ويظهر أن العطب ابتدأ يدب اليها في القرن الحادي عشر ، فإننا لا نجد لها ذكراً منذ هذا القرن في تواريخ العصور المتأخرة ، كخلاصة الأثر للمحبي ، وسلك الدرر للمرادي . وآخر من ذكرها مشيراً إليها الشيخ بدران (— ١٣٢٣) وإليك نص كلامه : « قال ابن كثير : إنها للحنفية والشافعية ، وقال الأسدي ، إنها على الحنفية فقط ، ولكن صاحب التنبيه (النعيمي) وغيره لم يذكروا من درس بها من الشافعية ، ولم يتقدم لها ذكر في مدارسهم . وهذا الخلاف لا طائل تحته بعد ما صارت بستاناً . ولقد وقفت على ما بقي من آثارهم فقرأت كتابة في حائط قبتها الشرقي فوق الشباك ، فإذا هي ، (ثم سرد الكتابة التي ستردعليك ثم قال) : ثم دخلت القبة ، فإذا لها باب صغير من الجانب الغربي وهي متسعة وقد سقط أعلاها وبنى بها أصحاب البستان الذي كان مدرسة إصطبلاً صغيراً وحجرة ، وجُعل فوقهما غرفتان . وجدران تلك القبة الأربعة في غاية المتانة ، مبنية بالحجارة الضخمة ، وفي جدارها القبلي باب يتوصل منه إلى قبّة ثانية أصغر منها وهي على حالها لم يتغير منها شيء . وهي التربة الأمجدية ، وبها قبر بني بالحجارة الكبيرة وارتفاعه عن الأرض أكثر من ذراع ، ولها باب من الجانب الغربي . وأمام القبتين الآن من الجانب الغربي بركة صغيرة يمر فيها الماء . وأما المدرسة فهي الآن بستان ولم يبق من آثارها سوى أساس جدارها الذي كان محيطاً به ، وقد جعل أساساً لداك (٣) البستان ، ولسوف تذهب هذه الآثار أيضاً فلا يبقى لها ذكر إلاّ في القرطاس (٤) .

جاء بعد بدران المستشرق سوفَـجيه Sauvaget فذكرها في كتابه وقال : إنها قد ساء

---

(١) انظر مخطوطته المحفوظة بالخزانة التيمورية ، ومنها نسخة بمكتبة المعهد الفرنسي بدمشق (في فصل المدارس الحنفية)

(٢) لا نعرف بالضبط سنة وفاته ويغلب على ظن Sauvaire أنه مات في سنة ٩٢٢ (انظر J. A سنة ١٨٩٤ ص ٤٥٩)

(٣) الداك كلمة شامية يطلقونها على حيطان البساتين من الطين النيء المعمول على شكل قوالب طولها ذراع في ذراع أو أكثر

(٤) المنادمة ، مخطوطة المعهد ٢ / ٢٥٤

حالها جدًّا وتبدلت معالمها وخصوصاً حينما حوّلت في سنة ٢٧ — ١٩٢٦ إلى مسجد ، فقد شوهت معالمها تشويهاً قبيحاً بهذا التبديل الذي لم يقم به أناس لهم خبرة بالترميمات والاصلاحات الأثرية . ثم ذكر أنك إذا فحصت عن القبة وما يجاورها لا تجد أثراً آخر لبناء آخر ، فالمدرسة التي يذكرها المؤرخون لم تكن شيئاً غير هذه القبة ، ففيها كانت تلقى الدروس وتستدير الحلقات (١) .

قلت : ويظهر أن العمران لما امتد إلى تلك المنطقة أصبح البستان الذي أشار اليه بدوراً وحوانيت ، فقام أهل الحي وجعلوا من المدرسة مسجداً في سنة ٢٧—١٩٢٦ ولكنهم شوهوه هذا التشويه الذي تحدث عنه السيد Sauvaget .

والمدرسة اليوم تقع في دخلة صغيرة تسمى دخلة القزاز (في شارع زقاق الصخر) غير بعيدة من بناء مدرسة التجهيز .

٢ — وصف البناء

المدرسة — التربة بناء مربع مساحته ٨ر٧٠ × ٨ر٧٠ من الأمتار ، له حيطان من الحجر الأصفر الضخم (٤٤ سم) وتشكل هذه الحجارة الضخمة من مدماكات (٢) ثم تصغر الحجارة فتصبح (٠ر٢٥ سم)

وقد فتح في كل جهة من جهات البناء المربع باب إلى الجهات الأربع جعل الباب الشرقي المدخل الرئيسي وجعل الباب الجنوبي مدخلاً إلى القبة الأمجدية التي تحدثنا عنها من قبل . أما الباب الشمالي فقد جعل شباكاً يشرف على دخلة صغيرة وهو مسدود اليوم . والباب الغربي يؤدي إلى صحن المدرسة ، وقد سدّ اليوم بخشب وطين سدًّا قبيحاً ، ومن فوق هذه الحيطان كانت تقوم القبة الجميلة . وهي قائمة على أربع أقواس من الآجر يمتطي كل قوس حائطين من الحيطان الأربعة ، وبين كل قوسين قوس ثالثة تقوم على حائط واحد من هذه الحيطان وقد قسمت هذه القوس إلى كوتين صغيرتين . ومن فوق هذه الأقواس جميعاً كانت تقوم ست عشرة كوة على سطح أصغر من السطح الذي قامت عليه الأقواس ومن فوق هذه الكوى تقوم قبة شكلها نصف دائري . وهذا الشكل من القباب هو الشكل الدارج في دمشق الأيوبية وحدها في القرنين السادس والسابع على ما يذكره السيد Sauvaget هذا وصف مجمل لحالة القبة من الخارج قبل أن تتهدم ، كما يدل نمط القبة التي إلى جانبها

---

(١) Monuments, I, 35. (٢) المدماك : كلمة شامية تطلق على الصف الواحد من الحجارة في الحائط أو غيره .

ونمط كثير من القباب التي رفعته في هذا العصر . أما اليوم فقد تهدمت الكوى الست عشرة والقبة الكروية ، وأقيمت من فوق الأقواس قبة من خشب وطين قبيحة الهيئة والشكل .

هذا وصف القبة كما كانت من خارجها ، فأما داخلها فقد كانت حيطانها مغشاة بقشرة من الجص الأبيض ، من تحته طبقة من الآجر . ويظهر أنه كان لها محراب جعل مكانه باب حيما بنيت القبة الأمجدية إلى جانبها . وتحت هذه القبة كان يقع قبر الملك فرخشاه ، وليس له أثر اليوم ، فقد درس تماماً ، وفرشت أرض القبة بالموزييك الحديث .

٣ — زخارف القبة ونقوشها

قلنا إن حالة القبة اليوم جد سيئة لا تبين لزائرها الحالة الزاهية التي كانت عليها ، ولكنك تشاهد على كل حال آثاراً عظيمة فخمة وبناءً مهندساً . أما من الخارج فالقبة ساذجة وليس فيها شيء من الزخرفة البنائية ، إلاّ قفل قوس الباب فإنه نحت من الحجر الأسود تكتنفه صفحات من الحجارة البيض المصفرة . ومن تحت هذه القوس تقع أسكفة الباب ، وهي قطعة ضخمة من الحجر الأبيض طولها ١٫٢٠ متر وقد حفر طيها إطار مستطيل في طرفيه مثلثان وضمن هذا نقشت الكتابة الآتية : (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه التربة المباركة الفقيرة إلى رحمة الله تعالى برسم ولدها الملك المنصور معز الدين والدنيا فرخشاه بن شاه شاه (هكذا) بن أيوب الملكي الناصري توفى مستهل جمادى الآخر (هكذا) سنة تسع وسبعين وخمسمائة)⁽¹⁾ .

أما نقوش القبة من الداخل فكانت نوعين : ١ — نقوش بالحبر الأزرق على أرض من الجص ، وهي زخارف هندسية ونباتية رائعة تشبه نقوش تربة البدري . وقد طمست هذه النقوش كلها لما طليت حيطان التربة وجعلت مسجداً ، وقد حفظ لنا السيد Sauvaget بعض هذه النقوش في كتابه⁽²⁾ وقد أسف جدًّا لعجزه عن نقل كثير من هذه النقوش ، فالظاهر أن الناس قد طلوا القبة بالجص ثانية فذهب كل أثر للنقش . ومن الواجب على رجال مصلحة الآثار رفع هذه الغشاوات وإعادة النقش إلى حالته الأولى . ٢ — نقوش جصية ألصقت على الحيطان في الزوايا والأطراف . وقد بقيت هذه النقوش لأن طبقة الجص التي طليت بها الحيطان لم تقو على تشويهها ، وهي نقوش جميلة بارعة في أشكالها الهندسية وتعاريجها .

---

(١) أورد هذه الكتابة بدران في « المنادمة » باختلاف بسيط ، وقد مر بك أن بعض المؤرخين يجعلون وفاته سنة ٥٧٨

(٢) Les Monuments Ayyoubites, I, 29-3

التكيف الاقتصادي

لسعد ابرهيم النمرى

– ٢ –

ما هو العلاج لمشكلات النظام الاقتصادي ؟ قبل الاجابة عن هذا السؤال أود أن ألجأ إلى التاريخ لأقص بإيجاز التطور الذي أصاب النظم الاقتصادية ، فأقول :

أول نظام اقتصادي نشأ في العصر الحديث هو النظام التجاري (Mercantilism) أو مذهب الكسبيين كما سماه البعض ، وأساسه أن الثروة تتألف من المال والمعادن الثمينة التي إن حازتها الدولة أصبحت منيعة الجانب . وقد ظهر هذا المبدأ منذ فجر القرن السابع عشر وكان مثار الحروب طوال القرن الثامن عشر في القارة الأوربية وسبب المشاحنات الدولية للاستيلاء على المستعمرات . وكان من نتائجه أيضاً وضع القوانين في كل دولة للتضييق على حرية التجارة والصناعة . وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأ آدم سمث هجومه العنيف على هذا النظام حين نشر كتابه (ثروة الأمم) وجاهر بأن الفرد أصلح ما يكون للحكم على منافعه الاقتصادية . وقد كانت فكرته هذه تتمشى مع الفلسفة السياسية لذلك العصر وما تلاه . إذ أن مفكري الثورتين الأميركية والفرنسية وكتاباً كثيرين مثل توماس پين وبنتام ووليم فون هامبولت قالوا إن مهمة الحكومة تنحصر في إقامة العدل أو القضاء وليس لها حق التدخل في الشؤون الاقتصادية . وهكذا نشأ نظام جديد ساعدت الثورة الصناعية على ظهوره هو النظام الفردي (Indviidualism) أو النظام الحر (Laissez-faire) على أن السير بموجب هذا النظام أدّى إلى ويلات بشرية أوجبت تفكيراً جديداً يقضي بتدخل الحكومة في الأعمال الاقتصادية تأميناً لمصلحة الأمة ، فظهر مذهب آخر هو المذهب الجمعي (Collectivism) القائل إن الديمقراطية السياسية لا تكفل سعادة المجموع ولاسيما أن المصالح الاقتصادية تسيطر عليها وتتحكم فيها . أو بمعنى آخر إن الديمقراطية الاقتصادية يجب أن تكون أساس الدولة . وهكذا نشأت وزارات العمل والصحة والزراعة في بريطانية وظهرت حركة النقابات في فرنسة والشيوعية في روسية والمجالس الاقتصادية في أرلندة وألمانية والفاشستية في إيطالية . ومن هذا العرض الوجيز نفهم أن النظم الاقتصادية قابلة للتغيير وأنها في طريق التغيير ، وكلما تقدم الانسان في العلم والاختراع ظهرت ملابسات جديدة تقتضي التوجيه . إن أول قانون في الحياة ليس هو الجمود بل الحركة والتغير أو التكيف لملاءمة الأحوال الجديدة

وعلى هذا يجب أن تُسيَّر النظم الاجتماعية تسييراً علميًّا بحيث لا تثار طبيعة الانسان بل ترضى وتقنع ضمن حدود صالحة. قال أحد المفكرين: « إن أول علامة الانسان المتمدن تشككه في المبادئ التي يعتنقها » ولكننا نجد فرقاً في الأشخاص من هذه الناحية. فالرجعي يعتقد أن الأوضاع الاجتماعية صحيحة لا تحتاج إلى تبديل ولا يعتريها ضعف ما ويفرض أن المتطرفين في حاجة إلى تذليل لينقادوا لقوانين المجتمع. والمفكر الحر يرى أن الطبيعة البشرية كاملة ويفرض أن الرجعيين مرغمون على تغيير النظم لتتفق والأهواء البشرية. على أننا أوضحنا في ما سبق الحاجة إلى تطويع الميول الإنسانية وترقيتها، فبقي علينا أن نبحث التغيير الواجب إحداثه في التنظيم الاجتماعي.

أهم نواحي التغيير ثلاث، هي: التدخل الحكومي والراديكالية الاقتصادية والديمقراطية الاقتصادية. اما مسألة التدخل الحكومي فلا تزال من الأمور الجدلية ولكن الاقتصاديين الأحرار يرون ضرورة التدخل الحكومي لازالة الأضرار الاجتماعية وتسيير الأعمال الصناعية، وهم يقولون إن مهمة الحكومة ليست هي التدخل حيث لا مسوّغ لتدخلها بل مهمتها أن تعاون وتوجه وتبني حيث لا تستطيع الأحوال الاقتصادية أن تصح من تلقاء نفسها. وعلى ذكر مسؤولية الحكومة تحسن الإشارة إلى قول العالم السياسي المعروف هارولد لاسكي: « إن أهم تغيير في النظام السياسي في النصف الأخير من القرن الماضي هو السرعة التي سيقت بها الدولة بضغط الحوادث لاتخاذ شكلٍ إيجابي في المسائل الاقتصادية . . . وعلى الجملة فإنه من الواضح أن الحيز السياسي يحدد اليوم في الغالب باعتبارات اقتصادية »

وقد بلغ التدخل الحكومي أوجه في الحرب العالميَّة الأولى تبعاً للضرورة في جميع البلدان المحاربة، فسيطرت الحكومات على جميع مرافق الحياة لكسب الحرب ولم يبق للتوجيه الفردي قيمة ما. وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر رد الفعل في جميع الدول ضد التدخل وفعلاً عادت تدريجيًّا الصناعة والتجارة إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وأصبحتا تسيران على قاعدة الحرية الفرديّة والجهد الشخصي. غير أن الحكومات لم تعد قادرة على التنصل من الاهتمام بالشؤون الاقتصادية، ولهذا أصبح التدخل الحكومي أشد مما كان عليه قبل الحرب، وصار من المتفق عليه أن تتدخل الحكومة في القضايا التي ثبت لزوم التدخل فيها كالمنافع العامة مثلاً. وقد سارت الحياة الاقتصادية سيراً حسناً إلى أن حلَّت الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ وبذلك اضطربت الأمور وأصبحت الدول الرأسمالية ملزمة أن تتدخل في مشكلات الصناعة والتجارة والعناية بالتبطل. وهنا يحسن بي أن أشرح تاريخ التدخل الحكومي أو تطوره. ففي الولايات المتحدة بدأ تنظيم الأعمال الاقتصادية المعروفة

بالمنافع العامة كالتلغراف والتلفون والماء والنور والطرق الحديديَّة قبل الحرب الأولى لحماية الجمهور من الأجور الباهظة وتزويده بخدمة صالحة . وكذلك بوشر تنظيم المصارف لتثبيت مستوى الأسعار بعد الحرب . ثم تولت الحكومة تنظيم التجارة والصناعة للحد من الاحتكار أو للمحافظة على مبدأ التزاحم . فنشأت اللجنة التجارية التي من مهمتها البحث عن تنظيم المؤسسات التجارية وسيرها وأعمالها وإدارتها ، وهل تنطبق على قوانين الدولة أو لا تنطبق ؟ . وكذلك أوجد تشريع يعرف بقانون كلايتون غايته محاربة المزاحمة غير المشروعة أو توجيه التجارة والصناعة تبعاً لمصلحة الأمة . ووضعت أساسات التعاون الذي يعتبر متمماً للتزاحم بقانون « وب » للتجارة الخارجية وقانون « إدج » للمصارف التي تتعامل بتلك التجارة . وأصبحت وظيفة الحكومة التوفيق بين مبدأ التزاحم ومبدأ التعاون في النظام الاقتصادي .

وقد كان الداعي إلى اتخاذ هذا الموقف اتساع حجم المؤسسات والاتجاه نحو التكتل التجاري الذي يؤدي إلى الاحتكار . وتعجز الحكومة التي تقصد محاربة هذه الظاهرة لأن انتشار الطرق العلميَّة ووفرتها مما يدعو إلى الإنتاج الواسع النطاق ، وكل ما تستطيع الحكومة أن تفعلهُ هو السعي لإبقاء مبدأ التزاحم سليماً إلى أبعد حدٍّ ممكن . وقد حاولت الحكومة البريطانية أن تحارب هذا التضخم فوجدت أنها غير قادرة فعدلت عن خطتها .

وقد ظهر في العصر الحاضر من استطاعوا أن يذللوا مصاعب النظام الاقتصادي ؛ فكانوا إذا صُدوا في ناحية ولجوا أخرى . فالنشاط الإنساني لا يمكن أن يحد ولكن يمكن تنظيمه وتوجيهه لخدمة الجمعية البشريَّة . ومن هنا حدث تغيير في وجهة نظر قادة الصناعة والتجارة فلم يعد جمع المال أو البروز الشخصي في رأيهم العامل الأساسي في الموضوع ، بل إن أسساً معنوية جديدة أضيفت كالشرف والخلق والمثالية التجارية القائمة على فكرة الخدمة العامة . وهذا ما عناه جورج پركن حين قال : إن العصر الفردي الذي كنا نعيش فيه . . . أغدق الثروة بسرعة على الأفراد وكان جمع المال الهم الوحيد للناس في هذه البلاد في الأربعين سنة الأخيرة . ولكن العصر الفردي على الإجمال لم يكن ناجحاً لا للفرد ولا للمجموع ، ولذلك فهو آخذ في الزوال ، وليس في نظري ما هو أوضح من ذلك ، وأعتقد أنه كلما أسرع إنسان المستقبل في فهم هذا الأمر وسلك بموجبه كان نجاحه مضموناً وسعادة بلاده محتومة . إن زينتنا الوحيدة وهي (الدولار) لم تعد ذات قيمة كما كانت فالرجل ذو المقدرة الفائقة سينظر من الآن فصاعداً الى مكافأته على عمله لا من جهة واحدة بل من اثنتين : سينظر أولاً وفي الدرجة الأولى إلى إتمام عمل المنفعة العامة . وثانياً إلى كسب الثروة الخاصة . وفي اعتقادي أن عادة جمع الثروة من أجل حيازتها فقط قد وصلت إلى أوجها . وعادة إنجاز مهمة عامة من أجل

إنجازها أصبحت متمكنة في النفوس » . فالمشكلة إذن هي توسيع مجال الخير العام وإيجاد المنافذ للميول الفردية ، وإذن لا بدَّ من التدخل الحكومي لضمان الناحيتين .

ولم يقتصر تدخل الحكومة على التجارة والصناعة فحسب بل تناول مشكلة العمال لأن العمال ركن هامٌ من أركان نظام الإنتاج . فأصبحت الحكومة تهتم بأمور العمال وأحوال العمل وتنظر في الخلافات الناشئة بين العمال وأصحاب العمل وتصدر أحكامها وتجبر هؤلاء العمال على استئناف العمل بشروط تراها مناسبة . فساءَ هذا الأمر العمال لأنهُ انتزع منهم حرية الإضراب . وحجة الحكومة في ذلك أن وقف العمل يسبب خسارة عظمى للهيئة الاجتماعية . ولكن تذمر العمال على كل حال أدَّى إلى تغيير جوهري هو إعطاء العمال حرية الإضراب. وقد أيد هذا ما اقترحته اللجنة التي ألَّفها الرئيس ولسن عام ١٩١٩ من أن الاجبار خطأ وأن الطريقة المثلى هي التحكيم ، ولكن الحكومة ما لبثت توحي إلى المحاكم بمنع الاضراب . فأسفر هذا عن وضع مادة في القانون تقول : إن عمل الفرد ليس هو سلعة معدة للبيع وإن تنظيم صفوف العمال قانوني . ولا يمكن منع العمال « من تنفيذ أغراضهم المشروعة » على أن هذا التشريع لم يحمِ العمال من أحكام المحاكم ، لأن المحاكم هي التي تقرر الأغراض المشروعة والأغراض غير المشروعة ، أي أن العمال ما زالوا تحت سلطة المحاكم . والاختبار يثبت أن الوضع يستدعي التقليل من استعمال سلطة الحكومة الاجبارية وإيجاد سلطة منظمة لجميع مشكلات العمال خارجة عن المحاكم . لأنه إذا استرسلت الحكومة في سياسة القهر فسيؤدي ذلك إلى نتائج نفسية عند العمال تدعو إلى الثورة والتخريب . إذ ليس من الحكمة الاكتفاء بكبح جماح الطبقة العاملة بل بإيجاد الوسائل لإظهار قوة هذه الطبقة ومساعدتها . وفعلاً خطت الحكومة الأميركية خطوة طيبة هي التحكيم ، وعلى الأخص في قضايا السكك الحديدية . وقد زاد التدخل الحكومي في أميركة كثيراً بعد الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٢٩ وذلك لمنع انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي فأدخل قانون الإنعاش القومي N. R. A. وغايته تنظيم الصناعة من حيث الإنتاج والأسعار على نحو التنظيم الزراعي الذي سبق ذلك . ولكن الخطوة الجريئة تمت حينما وضع الرئيس روزفلت مشروع التعامل الجديد New Deal موضع التطبيق سنة ١٩٣٤ وذلك الذي يتعلق بالتأمين الاجتماعي والتبطل والأشغال العامة والاحتفاظ بالمواد العامة . وكان من أثر هذا المشروع الاعتراف بحقوق العمال من حيث التنظيم والمساومة المشتركة واتخاذ محكمة العدل العليا طابعاً جديداً . وسارت الحياة الاقتصادية في أميركة بشكل مرضٍ حتى إعلان الحرب حينما سيطرت الحكومة على جميع نواحي الإنتاج مرة ثانية .

أما في بريطانية فقد بدأ التدخل الحكومي على شكل إصلاح في زمن لويد جورج قبل الحرب الماضية واستمرَّ بعدها . والإصلاح الذي تمَّ يشمل وضع حدٍّ أدنى للأجور ومنع تشغيل الأولاد وحماية النساء اللواتي في الصناعة وإيجاد مبدأ التعويض والتأمين والوقاية من الحوادث الخطرة والنار وتوفير الأحوال الصحيَّة وتحديد ساعات العمل وإيجاد أماكن السكن الملائمة وتأليف اللجان الصناعيَّة وإنشاء هيئات للتوظيف . وقد أدَّت هذه الحركة إلى تحسين يذكر ولكن يجب أن ندرك أن التحسين الناشىء عن الإصلاح له حدود فالإصلاح ليس برنامجاً شاملاً موحداً ولكنه مجموعة من المشروعات الفرديَّة، ولهذا يبقى النظام الاقتصادي دون تغيير أساسي وتبقى مساوئه تفعل فعلها . وما دامت حالة الطبقات وحقوقها وميزاتها في النظام الاجتماعي بدون هذا التغيير الأساسي فإن حركة الإصلاح تبدو سطحية . فالإصلاح الحقيقي يجب ألاَّ يعني هدية من الهيئة الاجتماعية للمحتاجين بل يجب أن يعني تنظيم المجال للإنتاج الشخصي، وتقدم المجموع عن طريق الجهد المبدع لجميع الأفراد. ولما نشبت الحرب الماضية صار التدخل في بريطانية فعليًّا وزال بزوالها، وذلك لأن بريطانية كانت أمنع من أن تتعرض لانهيار اقتصادي، ومع ذلك فقد عدّلت بريطانية سياستها الجمركية وتدخلت في شؤون الزراعة والمناجم . ولما حلَّت الحرب الحاضرة استولت الحكومة على كل الأعمال وظهر مشروع بيفردج وأعلن مشروع السنوات الأربع على لسان المستر تشرتشل .

أما في ألمانية وإيطالية واليابان فكان التدخل الحكومي عامًّا وغايته تهيئة كل من هذه البلدان للحرب بتوسيع برامج التسلح، وهذا النوع من التدخل مخفق من الناحية الاقتصادية لأنه يفقر الدولة ويخفض مستوى المعيشة وإن قضى مؤقتاً على مشكلة التبطل . وقد أُعطي التدخل الحكومي اسماً جديداً في السنوات الأخيرة فأصبح يعرف بالتوجيه الاقتصادي Economic planning ومدلول هذه التسمية ضبط أمور ثلاثة : وهي ماذا يجب أن ينتج ؟ وما سعر المنتوجات ؟ وكيف توزّع الثروة بين طبقات الشعب ؟

وليس بين حكومات العالم ما يجاري روسية في هذا الميدان ، وسبب ذلك أنها دولة اشتراكية . فالنظام الرأسمالي في بريطانية وأميركة وأضرابهما قائم على الربح الفردي، والنظام الاقتصادي في الدول النازية قائم على سوق الفرد لمصلحة التسلح فالحرب، والنظام الاشتراكي في روسية قائم على أساس الربح الاجتماعي العام . غير أن النظام الديمقراطي يكفل الحرية الفردية والنظامان النازي والشيوعي هدفاها . فالمشكلة إذن هي وجدان نظام يمكنه التوفيق بين الحرية الفردية والتوجيه الحكومي . ولسنا نعلم ما مصير الأمور بعد الحرب القائمة

« شرق الاردن »

الحيوان المنسي

للأب أنستاس ماري الكرملي

من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

— ٢ —

١٤ — ﴿❁ الحفث ❁﴾ : الحَفث ككتف : حية عظيمة كالجراب . وهو اسم آخر للقلب المتقدم ذكرها ولكن باللغة اليونانية ، أي Ophis وتلفظ (حفس) لوجود حرف حلق في الاول يشار اليه عندهم بعلامة حلقية . أفنحن أخذنا كلمتنا من اليونانيين ، أم هم استعاروها منا ؟ فالأمر يحتاج إلى درس . والمظنون أن الأسبقية لنا لأن الهلنيين أهملوا حلقية الحرف الأول ولم يبقوا منه إلاّ الاشارة ، بخلاف بني عدنان فانهم احتفظوا به . والكلمة مشتقة من فحّ فحيحاً ، ثم ذيل الفعل بالثاء المثلثة إبقاءً لصوت الحاء على قوته وصوناً له . قال لغويونا : الحفيف يكون من جلد الأفعى ، والفحيح من فيه . وكذلك الطائر والشجرة : إذا سمع لهما صوت ، ويقال في الحفث الفحِث والفِثح أيضاً والوزن واحد .

١٥ — ﴿❁ الزريقاء ❁﴾ : الزريقاء ، وبالانكليزية Suricat وتكتب عندهم أيضاً Surikate و Suricate هو حيوان كالسنور يكون في جنوبي إفريقية . ويظن لغويو الإنكليز أن الكلمة من لغة أهل تلك الديار ، ولا يعرفون سبب هذه التسمية . والذي عندنا أنها من وضع العرب الذين وصلوا إلى تلك الديار من قديم الزمن . قال صاحب القاموس : الزريقاء دابة كالسنور . وكذلك قال سائر اللغويين ، ولم يزيدوا على هذا القدر . وسماهُ الإنكليز أيضاً Zenick وهو تصحيف للاول . وهو حيوان لبون من ذوات الأوجرة . اسمهُ العلمي Suricata Tetradactyla (أي الزريقاء ذات الأربع أصابع) وهو يشبه سنور الزباد ، ولونهُ السمرة الضاربة إلى الرُمدة ، وهي من معاني الزرقة عند العرب ومنها اسمهُ ، مع جُددٍ على ظهره .

١٦ — ﴿❁ المغوار ❁﴾ : المغوار في اللغة : المقاتل الكثير الغارات وهو يناسب الإفرنجية Jaguar وهو نمر موطنهُ أميركة ، واسمهُ في اللغة البرازيلية (يَغوارا) Yagoara ولهُ

اسم آخر في الانكليزية هو (البَبْر الاميركي) American Tiger وبلسان علماء الحيوان Felis onca وهو ضارٍ ضخم من فصيلة السنانير مفتول العضل مأسوره قوي البنية ، يظعن من تكساس والمكسيك إلى پتاغونية . ولونهُ في الغالب أصفر أسيْمر ، وعليه دارات عريضة مشبعة اللون وقد تكون تلك الحلق مزوَّاة ، وتحوي كلٌّ منها في الغالب جُدَّة أو جُدَّتين مشبعتين ، وأكثر إقامتهِ على الأشجار فإذا رأى فريستهُ أغار عليها فانقضَّ انقضاض الطائر الجارح ، ومنهُ اسمهُ المغوار وهو من وضع أبناء عدنان في غابر الزمان .

١٧ — ﴿ الغويئبيّ ﴾ : الغويئبيّ ، بضم الغين المعجمة وفتح الواو وإسكان الياء المثناة التحتية يليها همزة مكسورة فباء موحدة تحتية مكسورة وفي الآخر ياء مشدَّدة من الظباء بل من أصغر ما يعرف منها اسمهُ الانكليزي Kleeneboc واسمهُ العلمي Cephalophus Pygmaeus وموطنهُ جنوبي إفريقية ، علوّهُ قدم واحدة عند كتفيهِ ، فإذا رأى عدوًّا يهجم عليهِ غاب عنهُ بلمح البصر ومنهُ اسمه ، وهو في منتهى الخفَر وقد صحف الانكليز وغيرهم هذا الاسم بصورة Guevi ومن أسمائهِ الانكليزية Pygmy Antelope أي الظبي القزم .

١٨ — ﴿الشقيح﴾ : الشقيح ، أقبح القردة خلقة ومنهُ اسمهُ في العربية ومنهُ الانكليزية Saki وكذلك في سائر اللغات الجارية في ديار أميركة ، ويظن الغربيون أن الكلمة من لغة البلاد التي يوجد فيها إذ لم يعرفوا أصلها ولا من أي لغة هي ، فهي عندنا عربية بلا شك . وأنواع الشقيح كثيرة وموطنها أميركة الجنوبية وهو من جنس الفاتكات(١) Pitheci التي تشمل قسماً من الحيوانات اللبونة فيها القردة Apes والهجارس Monkeys . والشقيح بوجهٍ عام آذنُ (أي عظيم الأذنين طويلهما) في جميع ضروبه ، ولهُ ذنب وافر الشعر سبطهُ واسم الشقيح الأسود عند العلماء Pithecia Satanas أي الشقيح الشيطان واسم الشقيح الأبيض الرأس P. Leucoccephala والأحمر الظهر P. Chiropotes وهي أحسن ضروب هذا الجنس المعهودة

١٩ — ﴿الهر الأميركي﴾ : الهر الأميركي ، واسمه بالانكليزية والفرنسية Eyra واضح أنهُ من العربية هرَّة ، وعلماء الحيوان من إنكليز وفرنسيين لا يعرفون هذا الأصل إذ يقولون إنهُ بلغة أهالي أميركة الجنوبية وهو سنور وحشيّ ، وإنما نعتناه بالأميركي تمييزاً لهُ من سائر السنانير ، واسمهُ العلمي Felis Eyra وهو ينتقل من البرازيل إلى تكساس ،

---

(١) راجع الذيل

ولونهُ أصـفر أحيمر . وحجمهُ يداني حجم السنور الأهلي لـكنهُ أدق منهُ جسماً وأقصر رجلاً .

٢٠ — ﴿النفوح﴾ : النفوح ، فعول من نفح الطيب ينفح للمبالغة ، أي فاح وانتشرت رائحتهُ ، والنفوح ظبي صغير تفوح منهُ رائحة مسك طيبة واسمهُ بالانكليزية والفرنسية Napu وهو واضح الأصل العربي بيد أن علماء الحيوان من إنكليز وفرنسيين وأميركيين يقولون إن اللفظ من لغة أهالي زابج . واسمـهُ العلمي Tragulus Yavanicus وحجمه حجم الخُـزَز (الأرنب البرية) ، وهو معروف بسرعة حركته ووثباته الرشيقة . ومن أسمائه الانـكليزية Java musk deer أي ظبي⁽²⁾ المسك الجـاوي ، وظبي المسك القزم Pygmy musk deer و Deerlet أي الظُّـبَـيّ ، بصيغة التصغير .

٢١ — ﴿الفكَّـة﴾ : الفكة ، لغةً ، مصدر فكَّ يفَـك ويفـُك كعلم وكرم أي حمق في استرخاء . والفكة هنا : حيوان صغير موطنه أميركة الجنوبية ، وهو من القوارض ومشهور بحمقه المسترخي حتى إنه كثيراً ما يفاجأ ليقتل فلا يلتمس لنفسه مفرّاً فيؤخذ ويُـذل . واسمه الغربي Paca وهو بين من أنه منقول مبنًى ومعنًى عن العربية ، بيد أن البصراء في علم العجماوات يجهلون هذا النجار ، وكذلك قل على أهالي الأرجاء التي يرى فيها . واسمه العلمي Coelogenis Paca ولونه أسمر أسيود ، وعلى جانبيه خطوط متوازية هي جُـدد بيض كأنه قُـبع مخطط ، ويتصل بالغوطي والقبع .

٢٢ — ﴿الفلاَّح﴾ : الفلاَّح ، لغة من يفلح الشيء ، أي يشقه ويقطعه ، وفعال من صيغ المبالغة والمراد به هنا : ضربٌ من الظباء يكون للذكر منه قرنان طويلان ، ذوا عقد وأنابيب على شكل قيثارة . واللون الغالب عليه الـكمتة . وعلى عجزه ما يشبه الهلال ، أسود اللون . وموطنه إفريقية الجنوبية . وسمي فلاَّحاً لأنهُ يطعن عدوه بقرنيه الحادين ويبقر بهما بطنه فيورده حياض المنايا . ولا يعرف علماء الحيوان أصل هذه اللفظة ، وهو واضح أنهُ من العربية ، واسمه بالانـكليزية Pallah وبلسان العلم Aegyceros Melampus ومن أسمائه الانـكليزية Roodebok .

٢٣ — ﴿الغوطي﴾ : الغوطي⁽³⁾ بضم الغين المعجمة ، جمع غوط بالفتح والغوطي مختومة بيـاء النسب والغوط والغائط المطمئن الواسع من الأرض ، وهو حيوان لبون من

---

(٢) راجع الذيل (٣) راجع الذيل

القوارض ، موطنه أميركة وأوقيانية وهو بحجم الخزز يألف غوطها ومنه اسمه بالعربية وفي الانكليزية يسمى Agouti وكذلك في الفرنسية . وقد قال علماء الحيوان من أبناء الغرب إن هذا اللفظ مأخوذ من لسان الأميركيين الأصليين ولم يعرفوا أصل وضعه . وجنسه يعود إلى ما يسمى في اللغة العلمية Dasyprocta

٢٤ — ﴿ الحبس بمعنى الوعل والبدن ﴾ : الحبس⁽٤⁾ ، بفتح الحاء المهملة : الجبل العظيم ويضاف إليه الوعل والبدن فيقال ، بدن الحبس ووعل الحبس ، ثم اكتفوا بالاحتفاظ بالمضاف إليه وقالوا : الحبس ، وباللاتينية Ibex و Ibicis . وهو ضرب من القموص موئله الجبال العالية العظيمة . وله قرنان عريضان يشرفان على جبهته وينعطفان على ظهره . ومن أسمائه بالانكليزية Steinbock ومعناه تيس الصخر . وقد خصَّ هذا الجنس بالأوربي منهُ وبالوعل المتوطن لجنوبي إفريقية . واسمه العلمي Nanotragus Tragulus وهو يألف الأصقاع اليابسة الجافَّة الصخرية ، ويكتب اسمه بالانكليزية بصور مختلفة وهي : Steinbok, Steinboc, Stonebock, Stonebuck والمعنى واحد والمعيَّن بها واحد أيضاً

﴿ ملاحظة ﴾ — اعتمدنا لوضع هذه المقالة على معجم وبستر واسمه Webster's revised unabridged dictionary of the english language— Springfield, Mass , U. S. A.

﴿ الذيل ﴾

(١) (الفاتكات) ، جمع (فاتك) لغير العاقل هنا . وهو اسم فاعل من فتك في الخبث فتوكاً ، أي بالغ فيه . ويراد بالفاتكات ، جنس من القردة معروفة بخبثها ودهائها ونكرها . ويقال فيها أيضاً (الفواتك)

(٢) للكلمة Deer الانكليزية ثلاثة معان في الغالب فهي تعني الظبي وبالفرنسية Daim والايل Cerf والآبد Bête fauve . ورأينا هنا أن يقال ظبي ، لان هـذا الحيوان يشبه الظبي دون الايل وأي آبد كان .

(٣) أصل الكلمة الاجنبية Algouti; Agout أي أنهم أسقطوا منهـا لام التعريف ، لانهـا ليست من أصلهـا . والاجانب كثيراً ما يعبثون بألفاظنا كما نتصرف في كلمهم . فقد يحذفون اللام كما رأيت ، وكما في النفير ، فانهم قالوا Ana fin (أنافين) والتنور فقالوا Athanor (اثنور) ، والحبارى فقالوا Aubère (أوبير) والمصلى ، فقالوا Aumusse (أومصل) الى غيرهن . — وقد يحتفظون بها ، كما في الكيمياء Alchimie والقرآن Alcoran ، والغارة Algarade — وقد يزيدون عليها اداتهم للتعريف ، فيكون هناك تعريف على تعريف ، فقد قالوا l'Alcool, l'Alcoran, l'Alchimie

(٤) لما لم يكن في لغى الافرنج أحرف حلق كأحرفنا فانهم كثيراً ما يسقطونها في كلامهم ، فيقولون في المسيح : Messie وفي يسوع Jésus وفي نوح Noé وفي حواء Eve الى آخر ما هناك عن هذه الالفاظ وهكذا أسقطوا من الحبس الحاء فقالوا Ibex

المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٨ —

(ا) مأصر دمياط *

١ — ﴿ في كتب البلدان ﴾ دمياط على ما جاء في كتب البلدان العربية ، مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاويةٍ بين بحر الروم الملح والنيل ، وهي ثغر من ثغور الاسلام ، ومن شمالي دمياط يصبُّ ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يُقال لهُ الأشتوم حيث يبلغ عرض النيل هناك نحواً من مائة ذراع . قال ياقوت الحموي : « وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرسٌ ، لا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلاّ بإذن ، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنّيس ، وعلى سورها محارس ورباطات . . . . » (١)

ومِمن تطرّق إلى ذكر المأصر الدمياطي هذا ، اثنان من مشاهير البلدانيين ، نعني بهما زكريا القزويني ، وابن عبد الحَق ، غير أنهما لم يخرجا في ما سطَّراه عما ذكره ياقوت من قبلهما . ومما يحسن التنبيه عليه ، أن لفظة « عليها حرسٌ » الواردة في عبارة ياقوت أعلاه ، قد حرِّفت في كل من كتاب القزويني (٢) ، وكتاب ابن عبد الحق (٣) إلى « عليها جرسٌ » فليصحّحا .

٢ — ﴿ في كتب التاريخ ﴾ كانت المائة السابعة للهجرة مشحونة بأنباء غزو الفرنج للديار الشامية والثغور المصرية ، فطلائع جيوشهم كانت تطرق موانئ هاتيك البلاد بين حين وآخر ، ولكنهم يُصدُّون عنها في غالب الكرّات بفضل المآصر البحرية ذات السلاسل الحديدية المحكمة الصنع ، والأبراج المنيعة ، ويردون من حيث أتوا وتخيب آمالهم في الاستيلاء على نعم البلاد وخيراتها ، والتمتع بحسنها وطيب هوائها .

وفي الأسفار التاريخية كلام مسهب على حملات الفرنج هذه ، وهي التي أطلق على أغلبها في التاريخ اسم « الحروب الصليبية » .

(*) رأينا تأخير هذا الفصل عن الفصل السابق ورقمه ٧ وهو : (ب) مأصر الاسكندرية ، المنشور في مقتطف نوفمبر وذلك لاستفاضته وضيق المقام . هذا والسياق متصل . فلزم التنويه

(١) معجم البلدان (٢ : ٦٠٢ مادة دمياط) (٢) آثار البلاد (ص ١٢٩) (٣) مراصد الاطلاع (١ : ٤١١)

وبين المؤرخين طائفة ممّن شهد أو سمع بالكثير من حوادث هذه الحروب ، فلم يلازموا الصمت إزاءها ، بل دوّنوا أخبارها ، وفصلوا وقائعها ، ولا غرو أن يكون ما كتبوه متقارباً في المطلب متباعداً في الطرز واللون ، مما حدا بنا إلى جمع ما تيسر لنا جمعه من أنبائها المتعلقة بأمر الماصر وإيراده في محله من بحثنا هذا .

ولقد كان ابن الأثير (المتوفّى سنة ٦٣٠ هـ) من أوائل المؤرخين الذين سمعوا بخبر هذه الغزوات ، لأنهُ كان حيّاً يومذاك ، فنقل الينا خبر حصر الفرنج مدينة دمياط ، واستيلائهم على سلسلة مينائها . ودونك ما قاله في هذا الصدد ، نرويه هنا لما له من الخطر : « لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكة إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة (١) بينهم وبين دمياط النيل ، فانّ بعض النيل يصبّ في البحر المالح عند دمياط ، وقد بني في النيل (٢) برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظاً ومدّوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أنْ تصعد في النيل إلى ديار مصر ، ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدوّ لا يقدر أحدٌ على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها ، فلمّا نزل الفرنج على برّ الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممّن يريدهم ، وشرعوا في قتال مَن بدمياط ، وعملوا آلات ومَرمّات (٣) وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه ، وكان البرج مشحوناً بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل بن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تُعرف بالعادليّة بالقرب من دمياط ، والعساكر متّصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدوّ من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منهُ بشيء ، وكسرت مرمّاتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهُر ولم يقدروا على أخذه ، ثمّ بعد ذلك ملكوا البرج فلمّا ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح

---

(١) الجيزة في اللغة : الناحية وجانب الوادي

(٢) يظهر أن هناك برجاً آخر — غير هذا البرج الذي نحن بصدده — ، شيد في دمياط باسم برج السلسلة . فقد حكى المقريزي (السلوك ١ : ٤١٧ — ٤١٨ حوادث سنة ٦٥٧ هـ في معرض كلامه على الملك المظفر سيف الدين قطز) أنه « بعث بالمنصور وأخيه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم في برج عمره وسماه برج السلسلة . . . . » .

(٣) مرمات ، واحدتها مرمة : وهي ضرب من مراكب البحر العظيمة . ذكرها ابن الاثير في حوادث سنة ٦١٤ هـ بقوله : « . . . . وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوءة من الميرة والسلاح » .

في النيل ويتحكموا في البرّ ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا بهِ من سلوك النيل ، ثمّ إنّهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتّى قطعوه ، فلمّا قطع أخذ الملك الكامل عدّة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرّقها في النيل فمنعت المراكب مِن سلوكه .... » (١) .

وممّن كان عائشاً في هاتيك الأيّام المؤرّخ الشهير سبط ابن الجوزي (المتوفّى سنة ٦٥٤ هـ) ، وقد تناول بايجاز خبر حصار الفرنج مدينة دِمياط والتضييق على مأصرها البحريّ ، وممّا ذكره في حوادث سنة ٦١٥ هـ ، أنّ « في جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السلسلة ، وأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى العادل يخبره ويستصرخ . فلمّا اجتمع بالعادل أخبره ، فدقّ يده على صدره ومرض مَرَض الموت » (٢) . ثمّ واصل كلامه فذكر وفاة الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي بن مروان ، وقال : « قد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ بخبر برج دمياط وأنه انزعج ودقّ بيده على صدره ، وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن من جمادى الآخرة فتوفّي في عاكفين .... » (٣)

ويعدّ شهاب الدين أبو محمّد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسيّ المعروف بأبي شامة (المتوفّى سنة ٦٦٥ هـ) من أولئك المؤرّخين الذين اتّصلوا بأمور هذه الحروب ، ووقفوا على الكثير من حوادثها وأنبائها ، وقد وصف برج السلسلة في ميناء دِمياط خير وصف لأنّه رآه رأي العيان ، وأفاض في رواية استيلاء الفرنج على هذه السلسلة بقوله : « وفيها (سنة ٦١٥ هـ) أخذ الفرنج النازلون على دِمْيَاط برج السلسلة في آخر جمادى الأوّل فأرسَلَ الكامل إلى ابنه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به ، فلمّا اجتمع بالعادل ، فأخبره ، فَدَقَّ بيده على صدره ومرض مرض الموت — . قلت : وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي (علي بن محمد السخاوي) ، ورأيته يضرب يداً على يد ويعظم أمر ذلك ، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق ، فاني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين .... بان لي صحة ما أشار الشيخ اليهِ ، وذلك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفي ناحيته

---

(١) الكامل في التاريخ (١٢ : ٢١٠ — ٢١١ ، أوربة) — (١٢ : ١٣٣ ، بولاق) . — وانظر خزانة كتب الحروب الصليبية (١٢ ، ١١٤ — ١١٥ ، باريس سنة ١٨٨٧ ، القسم المستل من كتاب كامل التواريخ لابن الاثير) . (٢) مرآة الزمان (٨ : ٣٨٩) . (٣) مرآة الزمان (٨ : ٣٩١).

سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى البحيرة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان (١) »

ثم ذكر وفاة العادل في نفس السنة وأن « سبب موته انزعاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط ، أن الفرنج استولوا على برج السلسلة ، فدق بيده على صدره وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة فتوفى بعالقين .. » (٢) .

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل خبر هذا الحدث الخطير في تاريخ مصر ، مؤرخ من أشهر المؤرخين ، نعني به شمس الدين الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) ، فانه في مجرى كلامه على خلافة الناصر لدين الله العباسي ، تعرض بشيء من الايجاز إلى نزول الفرنج على دمياط « فجهز العادل العساكر إلى ابنه الكامل ليكشف عنها ، فأقبل ونزل تجاه دمياط ، فدام الحصار والقتال أربعة أشهر ، فمات الملك العادل في وسط الشدة واستراح ، فأخذت الفرنج برج السلسلة من دمياط ، وهو برج شاهق في وسط النيل ، وسابط من شرقيه والجيزة بحذابه من غربيه ، وعلى جنبي البرج سلسلتان عظيمتان تمتد هذه إلى سور دمياط ، والأخرى إلى سور الجيزة ، تقفل السلسلتان فتمنع المراكب من العبور إلى ديار مصر في النيل » (٣) .

وقد نحا ابن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) نحو سلفه الذهبي ، فمما رواه في حوادث سنة ٦١٥ للهجرة أنه في شهر ربيع الأول « نزلت الفرنج على دمياط وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى ، وكان حصناً منيعاً ، وهو قفل ديار مصر ... » .

ثم واصل كلامه بقوله : « وفيها توفي السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فأخذت الفرنج دمياط ، ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط ، فحاصروه مدة أربعة شهور ، والملك الكامل يقاتلهم ويمانعهم ، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر وصفته في وسط جزيرة في النيل عند انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر ، وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل فلا يمكن الدخول . فلما ملكت الفرنج هذا البرج ، شق ذلك على

---

(١) منتخبات من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، — وهو الجزء الخامس من خزانة كتب الحروب الصليبية ، (ص ١٦٧ — ١٦٨ ، طبعة بربيه دي مينار في باريس سنة ١٩٠٦)

(٢) منتخبات من كتاب الروضتين (ص ١٧٠) (٣) دول الاسلام (٢ : ٨٨ طبع حيدر آباد ١٣٣٧ هـ)

المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر ، تاوّه لذلك تأوهاً شديداً ودقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً على المسلمين وبلادها ، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عزّ وجلّ ، فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفي بقرية عالقين (كذا ، وصوابها عَالِقِين) » (١) .

وكان تقيّ الدين المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) مؤرّخ مصر ومدوّن خططها وأخبارها وآثارها ، قد أفاض الكلام في دمياط وزمن إنشاء مأصرها البحريّ وما أصاب تلك المدينة والمأصر من نكبات الفرنج على كرّ السنين ، وفي قوله فائدة وموعظة تاريخية بليغة . قال : « دمياط كورة من كور أرض مصر ، بينها وبين تنّيس اثنا عشر فرسخاً . . . ولمّا قدم المسلمون إلى أرض مصر ، كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يقال لهُ الهاموك . . . ، وما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم في سنة تسعين من الهجرة ، فأسروا خالد بن كيسان وكان على البحر هناك وسيّروه إلى ملك الروم ، فأنفذه إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم ، فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك نازل الروم دمياط في ثلثمائة وستين مركباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة . ولمّا كانت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون وكانت الفتن بأرض مصر ، طمع الروم في البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين ، ثمّ لمّا كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأمير مصر يومئذٍ عنبسة بن إسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملكوها وما فيها ، وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال . . . فأمر المتوكل ببناء حصن (٢) دمياط فابتدئ في بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين (ومائتين) ، وأنشأ من حينئذٍ الأسطول بمصر ، فلما كان في سنة سبع ، طرق الروم دمياط في نحو مائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك ، ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الإخشيدي ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من (شهر) رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة في بضع وعشرين مركباً فقتلوا وأسروا . . . وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى ، والوزير حينئذٍ الصالح طلائع بن رزيك ، نزل على دمياط

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ (١٣ : ٧٨ — ٧٩ مطبعة السعادة بمصر) .

(٢) حكى المقريزي في خططه (١ : ٢٩١) أن المتوكل « أمر ببناء حصن على البحر بتنيس ، فتولى عمارته عنبسة بن إسحاق أمير مصر ، وأنفق فيه وفي حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً » . وفي كلامه على مدينة الفرما (الخطط ١ : ٣٤١ قال : « . . . وبنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر تولى بناءه عنبسة بن إسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالاً عظيماً . . »

نحو ستين مركباً في جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة ... فعاثوا وقتلوا .. . وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد ، وصل الفرنج إلى دمياط في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة ، وهم فيما يزيد على ألف ومائتي مركب ، فخرجت العساكر من القاهرة ، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار ، فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوماً ، وكانت صعبة شديدة . . . ، وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة رُتبت المقاتلة على البرجين وشدّت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورمّ شعث سور المدينة وسدّت ثلمه ، وأُتقنت السلسلة التي بين البرجين ، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار ، واعتبر السور (١) ، فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعاً . وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة أمر السلطان بقطع أشجار (٢) بساتين دمياط وحفر خندقها ، وعمل جسر عند سلسلة البرج . وفي سنة خمس عشرة وستمائة كانت واقعة دمياط العظمى ، . . . فبرز الفرنج . . . وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر ، وساروا إلى دمياط في صفر ، فنزلوا يوم الثلاثاء رابع (شهر) ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة . . . . وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل ، فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي ، وحفروا على عسكرهم خندقاً ، وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط ، فانه كان برجاً منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ تمدّ على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر في النيل ، . . . وفي مدة إقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي وأقاموا أبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، فانهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل إلى القاهرة ومصر ، وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة ، فتحيل الفرنج عليه وعملوا برجاً من الصواري على بسطة (كذا ، والصواب بطسة) كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه ، وقاتلوا من به حتى أخذوه ....، واشتد الفرنج وألحوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد ، فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً لمنع الفرنج من عبور النيل ؛ فقاتلت

---

(١) قال القلقشندي (صبح الاعشى ٣ : ٤٠٦) « إن دمياط كان عليها أسوار من عمارة المتوكل أحد خلفاء بني العباس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة ، خربت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستمائة خوفاً من استيلائهم عليها ، وهي على ذلك إلى الآن » .

(٢) روى المقريزي في حوادث سنة ٥٨٨ هـ (السلوك ١ : ١١١) أنه كتب باخلاء مدينة تنيس ، ونقل أهلها إلى دمياط ، وقطع أشجار بساتين دمياط ، وإخراج النساء منها ، فخلت تنيس إلا من المقاتلة ، وحفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها » .

الفرنج عليه قتالاً شديداً إلى أن قطعوه ، وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار ، وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وإعمال الحيلة في مكايدة الفرنج ، فأمر الملك الكامل أن يفرق (كذا ، وصوابها يغرق) عدة من المراكب في النيل حتى يمنع الفرنج من سلوك النيل .... » (١) .

وممن نقل خبر دمياط ومآصرها البحري واستيلاء الفرنج عليها ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (٢) (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) ، وقد صرح بأنه أخذ الرواية عن سبط ابن الجوزي السالف الذكر . كما أن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، تناول الكلام عليها ناقلاً أقواله (٣) ممن تقدمه من المؤرخين الذين أوردنا أخبارهم .

ولعل آخر من تناول أخبار المأصر البحري في ميناء دمياط هو ابن إياس المؤرخ المصري (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ) فقد حكى أنه « لما ملك المسلمون مدينة دمياط ، أشار الأمراء على السلطان بهدم مدينة دمياط ، فأرسل إليها الهدادين فهدموها عن آخرها ولم يبق منها سوى الجامع الكبير ، ووقع فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من يومئذ خراباً ، وصار مكان بيوتها أخصاصاً من القش على شاطىء بحر النيل ، يسكن فيها جماعة من الصيادين وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك إلى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها جماعة من البنائين والحجارين ، وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وستمائة ، فجدد بناء سورها ، وأمر بردم فم البحر الذي تدخل منه مراكب الفرنج ، فردموه من القرابيص التي كانت هناك من الهدم القديم ، فامتنعت المراكب الكبار من الدخول إلى بحر النيل من يومئذ . ثم إن الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد التي كانت من البر إلى البر ، قيل إن هذه السلسلة كانت في أيام المقوقس عظيم القبط ثم بطلت فأمر باعادتها كما كانت » (٤) .

---

(١) خطط المقريزي (١ : ٣٤٤ — ٣٤٩) ، وقد نقل هذه الاخبار برمتها علي باشا مبارك في كتابه : الخطط الجديدة لمصر القاهرة (١١ : ٣٦ — ٣٨) . وقد تناول المقريزي أيضاً في كتابه السلوك (١ : ٧٢ ، حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، و ص ١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٤ — ١٩٥ حوادث سنة ٦١٥ هـ) الاخبار التي حررها في خططه بتغيير يسير لا يخرج به عن المقصد نفسه . نقول : ومن المهم ذكره أن المقريزي اعتمد في رواية هذه الحوادث على ابن الاثير اعتماداً كلياً ، وزاد عليه بعض أمور في خطط دمياط ومسالكها

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦ : ١٧٠ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ ، و ٦ : ٢٢٢ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ . طبع دار الكتب المصرية)

(٣) انظر : تاريخ الخلفاء (ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ) ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢ : ٢٨ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ ، المطبعة الشرفية بمصر)

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور (١ : ٨٧ ، بولاق سنة ١٣١١ هـ)

علم الكيمرجي ومنافعه

Chemurgy

لعوض جبرى

ان كلمة كيمرجي منحوتة من لفظين انكليزيين يراد بهما الانتفاع بالحاصلات الزراعية في الصناعات الكيميائية. ويسرني ، وقد طالعت المقال النفيس الذي كتبه رئيس تحرير المقتطف في علم الكيمرجي ، أن أشد أزره في هذه المباحث الجليلة

يتفاءل الزراع الأميركيون خيراً ، ويرجون يسراً من حاصلاتهم الزراعية حينما تقف رحى الحرب الحالية . إذ هم يتوقعون إنتاج غلال عجيبة تختلف عن المألوفة اختلافاً كبيراً . نقصد المواد الأولية التي سيتضافر على الانتفاع بها أصحاب المصانع والمعامل الكيميائية والمزارع .

ومع كون علم الكيمرجي أي الكيمياء الزراعية الصناعية قد جاوزت العقد الأول فقط من عمرها فإنها قد جدّدت أحوال زراعات الكون . ويرجع تاريخ تأسيسها إلى منتصف العقد الماضي من السنين ، إذ اجتمع خبراء الكيمياء والزراعة في مجمعهم السنوي للبحث في مسألة تزويد الفلاح بحاصلات أكثر مما لديه بغية زيادة ربحه وتموين الصناعة بمصادر جديدة لها من المواد الأولية أرخص من الخامات المعتادة .

وقصارى القول أن أولئك الخبراء الكيميائيين قد تقصوا ذلك الموضوع وما برحوا يستنبطون منافع جديدة للحاصلات الثابتة ويحثون قومهم على زرع حاصلات جديدة إما لمنافعها الحديثة وإما لمنافعها القديمة وإما للانتفاع بالمخلفات الزراعية . ومن الرجح أن الباحثين الذين فكروا في الحرب كانوا قلة . بيد أنهُ من حسن حظ أمريكة أن اليابانيين حينما زحفوا بعد ذلك ببضعة أشهر من الشاطئ الاسيوي إلى أبواب أسترالية ، كان علم الكيمرجي قد أنشئ وأعدّ لسدّ حاجة أمريكة .

ولو تأملت بعض الحاصلات الزراعية ، بحسب أسمائها الانكليزية متبعاً ترتيبها بالحروف الهجائية لأدركت أن أول ما حبسه اليابانيون عن أميركة هي ألياف الأباكا abaca أي قنب مانيلاّ (ومانيلاّ هي إحدى جزائر الفلبيين) وهي الألياف التي كان الاميركيون يصنعونها حبالاً ولاسيما الحبال البحرية التي ما زالوا في أمسّ حاجة اليها . ثم الكاسافا cassava التي كانت أمريكة تستوردها من جزائر الهند الشرقية الهولندية . والكاسافا هي مصدر النشا اللازم لصناعة المنسوجات إذ تؤخذ منها الصموغ ومواد اللصق التي تعتمد عليها الصناعات الاميركية . وكذلك حُرمت البلاد الاميركية الجوت الذي كانت تستورده من الهند لصنع

الخيش المتخذة منهُ أكياس الرمل في زمن الحرب . وحرمت أيضاً الكابوك kapok الذي كانت تصدره اليها جزائر المحيط الجنوبي الغربي . وهو النبات الذي يقي مناطق النجاة والأطواف من الغرق (وقد وصفته في مقال نشر بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣) ثم صمغ اللك (المعروف عند النجارين المصريين باسم الجملكة) وقوامه قشور حشرات شرقية . ويليه زيت النخل وزيت الطنج المستعملان في صناعة الصابون والطلاء والتزييت والمطاط . وصمغ اللك من المواد التي امتنع حصول الحلفاء عليها حينما زحف اليابانيون على جزائر الهند الشرقية . وقد ثبت أن أميركة لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها منه . كما تبينت استحالة حصول الأميركيين على كثير من هاتيك الحاصلات الزراعية من أي مكان آخر . وثبت أن المنتجات الأميركية من تلك الأنواع محدودة بحيث لا تفي حاجات البلاد وأنه لا بدَّ من الاستعانة بحاصلات البلاد المذكورة آنفاً .

وأغرقت غواصات ألمانية البواخر التي كانت تنقل مادة التنين من أميركة الجنوبية حيث تستخرج هذه المادة من شجر القبراخو quebracho trees ويستعمل التنين لدبغ الجلود الخام . وكذلك أغرقت الغواصات البواخر التي كانت تقل الفلّين من شبه جزيرة أيبريا . وكانت أمريكة ذات قدرة صناعية جبارة ، ومع ذلك فالجبابرة يمكن أن يموتوا جوعاً لأن احتياجاتهم العظيمة ليس من السهل سدها . وقد كانت في حاجة ماسة إلى هاتيك الحاصلات أو ما يشبهها وإلا وقفت رحى الحرب . وربَّ سائل يسأل : كيف ظفرت بها ؟ وجوابنا عن ذلك — أنها حصلت عليها بالكيمرجي . والكيمياء العصرية والزراعة هما أساس علم الكيمرجي . فإذا أردنا إحراز أية مادة او إنتاج بديل لحاصل من الحاصلات النادرة الوجود ، قام الكيميائيون بتحليل ذلك النتاج ليقفوا على كنه الجزيئات المؤلفة له . ثم يفحصون المنتجات المشابهة له ، في الحاصلات التي استطاعت أو تستطيع أمريكة إنتاجها ، ليعينوا أي حاصل منها له جزيئات تتاح إعادة حشدها على ذلك النمط . وأهم مثال يجوز إيراده في هذا المقام تحسين المطاط الصناعي في زمن الحرب الحالية تحسيناً حثيثاً ، إذ تمكنت اليابان في خلال بضعة أسابيع من الاستيلاء على أكثر موارد المطاط الطبيعي في العالم قاطبة . ومع ذلك أصبح في وسع الأميركيين بفضل الكيمرجي ألاّ يكتفوا بالحصول على صنف واحد من المطاط ، بل ظفروا بعشرات منه ، يمكن صنعها أشياء أنيقة تمتاز بقابليتها للمط وبمتانتها أو قسوتها وفق المرام . وذلك أن علماء الكيمرجي عملوا بالتجارب التي كان المرحوم العلاّمة توماس ألفا إديصون قد جربها في زمانه إذ زرع نبات العود الذهبي أو goldenrod غصين الذهب ، كي يستخرج منه المطاط ، فزرعوا هم أيضاً الهندباء البرية أو سن الأسد واستخرجوا منها مطاطاً .

وأتيح لعلماء وزارة الزراعة في معهد المباحث الخاص بالمناطق الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية ، إنتاج النوريبول norepol وهو مطاط صناعي مؤلف من زيوت فول الصوية « البسلة الصينية » والحنطة وغيرهما من الخضر . ومن المنافع الحديثة للحاصلات الزراعية أيضاً مادة الزين zein وهي من المنتجات الثانوية للقمح ، تحل محل صمغ اللك (الجملكة) ومنها أيضاً نشا البطاطا الذي يستعمل بدلاً من نشا الكاساڤا (وهي شجرة المانيوق) .

وكان أول من أعلن عن (الجملكة) الصناعية معامل آرثر . د . ليتل الكيميائية ، وذلك في أوائل السنة الحالية . وهذا النتاج الصناعي الجديد سيخفف من وطأة الحاجة إلى (الجملكة) الطبيعية التي كان تستورد عادة من بلاد الهند .

ومخترع هذه المادة الكيميائية هو C. G Harford هارفورد وقد صرّح أن هذه (الجملكة) تشبه صمغ اللك الطبيعي ، بل تفوقه في بعض خصائصها إذ هي تلتصق بالمعادن بسهولة مثلها في الخشب ، وأنها تقاوم تأثير المياه في السطوح التي تدهن بها . ولهذه (الجملكة) الصناعية الجديدة اسم صناعي هو زينلاك Zinlac وتقوم بصناعتها مصانع ويليم زينسير William Zinseer في مدينة نيويورك وهي شائعة الاستعمال الآن في الأدوات الحربية .

أما صمغ اللك الطبيعي فهو مفرزات متجمدة تفرزها حشرة هندية ، وقد كانت في الواقع ذات مزايا فذة هي قسوتها ومقاومتها للبلى وسرعة جفافها وسهولة تذويبها في المواد المذوبة الرخيصة . وبهذه الميزات راج استعمالها في كل مكان لأغراض شتى . ومنها وقاية أراضي الحجر وصقل الأثاثات الأنيقة . وطالما حاول المخترعون تقليدها فكان نصيبهم الفشل حتى قيض الله لنا علماء أمريكة المشار إليهم فأفلحوا كل الفلاح .

ويتسنى أحياناً في أمريكة زرع المحصول الذي كان يستورد عادة من خارج البلاد فينمو في التربة الأمريكية على ما يرام . ومثال ذلك أن اليابانيين حظروا القنب الذي كان الأميركيون يستوردونه من جزائر الفيلبين فجعل هؤلاء يزرعونه في بلاد ولايات كنتكي ومينسوتا وويسكونسن فجنى زارعو هذا المحصول الحديث جداً أرباحاً جديدة فوق أرباحهم المألوفة وبلغت المساحات التي زرعت هنالك بذلك المحصول سنة ١٩٤٣ — ١٨٥٠٠٠ فدان. ومن جهة أخرى يمكن غالباً أن يحل هذا المحصول الوطني محل المحصول الأجنبي . ومن ثمة تبين أن بذور الخروع يتسنى الاستغناء بزيتها عن زيت الطنج tung وأنه يمكن زرعها في مفاوز الولايات الواقعة في جنوب غربي الولايات المتحدة . والطنج زيت من زيوت التجفيف يدخل في صنع الورنيش الزيتي النفيس الثابت . ولعل أهم فوائد الكيمرجي التي يدهش الملأ فائدة تحويل نفايات الحقول إلى مواد نافعة مربحة . ويلخص علم الكيمرجي في هاتين الجملتين: « لكل شيء تنبته التربة نفع خاص وإن كنا لما نوفق لمعرفة نفع كل مادة على حدتها »

فعيدان قصب السكر المعصورة وسيقان القمح وقشور الفول السوداني يمكن أن تقوم مقام الفلين ، الذي هو حاصل من حاصلات أشجار تنمو في بلاد البورتغال وأسبانيا وإفريقية الشمالية . ولو استطاعت أميركة برغم غواصات هتلر المنبثة في أغوار مياه المحيط الاطلنطي الحصول على حاجتها من الفلين ، لحالت السياسة الدولية دون حرية تجارته .

وليس محتوماً على كل عالم بالكيمرجي تقويض المحتويات الكيميائية للفلين مثلاً ليستنبط بديلاً له(١) بل عليه أن ينهج منهجاً آخر . ومن المقترحات التي اقترحت لسد ذلك العوز ، اتخاذ عوض للفلين مؤلف من ألياف الذرة وجمارها ، فظهر أنها لا تصلح لذلك الغرض لأن خلاياها تكبر بكثير أمثالها في الفلين ، فضلاً عن كون غشائها أدق كثيراً من تلك ، غير أنه تبين أن الجمار إذا قطع قطعاً دقيقة وأذيبت حتى تصير سائلاً يمكن تكثيفه وتقسيته إلى أن يصبح مادة مرنة ينتج منها جسم يكاد يشبه التركيب الطبيعي للفلين ، فيصلح استعمال هذا النتاج المتخذ من نفاية الحقل فليناً صناعيًّا لتغطية القناني .

ويرى علماء الكيمرجي أن الأعشاب البرية الضارة التي تنبت في وسط النباتات النافعة إنما هي أزهار بغيضة عند الناس أجمعين ، ومنها نبات العشر(٢) (ضالة علماء الكيمرجي) وهو ذو ألياف حريرية تشبه الكابوك (وقد وصفته أيضاً في مقال نشر في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣) وأليافه جوفاء مملوءة بالهواء خفيفة جدًّا وتغشاها مادة شمعية تجعلها مسيكة فلا تستطيع المياه اختراقها ، ويستعمل حرير العشر بديلاً طبيعيًّا للكابوك في صناعة الأدوات والملابس الواقية من الغرق فضلاً عن كون ميزات ذلك الحرير العازلة للرطوبة عزلاً جيداً تجعله صالحاً لصنع الحلل التي يرتديها الطيارون الذين يحلقون في أعلى طبقات الجو . ومن منافع المخلفات الحقلية أيضاً أنها تتخذ منها مادة تحل محل الجليسرين في صناعة التبغ وذلك لأن الجليسرين أصبح نادر الوجود لشدة الحاجة إليه في صنع المفرقعات . والمعروف أن التفاح حين تعبئته في العلب أو عند تجفيفه ، تنبذ عادة قلوبه وقشوره . بيد أنه لما كان علم الكيمرجي كما قلنا لا يبيح الاستغناء عن أي جزء من أي شيء تنبته الأرض إذ يرى فيه نفعاً للخلق ، فقد حول أضرار النبات إلى منافع . وسُلّمت أطنان من التفاح الجيد

---

(١) اخترع أحد علماء الالمان فليناً من البطاطس وذلك بأن تكشط الاجزاء الدقيقة التي تبقى من لباب البطاطس ، عالقة بقشوره ، فتباع كعلف للمواشي . أما القشارة فتضغط حتى تصبح طبقات يعلو بعضها بعضاً فتصلح لسد القناني كالفلين الطبيعي .

(٢) وصفت هذا النبات في مقال مسهب نشر في مقتطف يناير سنة ١٩٤٣ وكان لذلك البحث صدى خطير وحسن تقدير لدى عظماء المملكة العربية السعودية ولذلك طلب إلي السيد سليمان الحمد السليمان نجل وكيل وزارة المالية السعودية بمكة المكرمة بعض معلومات بشأن العشر فتشرفت بلقائه يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩٤٣ في الوكالة العربية السعودية بالقاهرة حيث تباحثنا ملياً في هذا الموضوع لان في بلاد العرب ألوفاً من شجر العشر ،

كل الجودة ، الذي يستهدف للتلف فتعاف الناس شراءه وأكله ، إلى علماء الكيمرجي الذين سبق أن قاموا بعمل خلاصات من تلك المواد المهملة فعمدوا إلى إجراء التجارب في شراب التفاح ليستخرجوا منه مواد تقوم مقام السوائل النادرة الوجود فوفقوا كل التوفيق إذ تيسر لهم استخلاص مادة من التفاح السائل تتخذ عوضاً من الجليسرين فنجم عن تلك المباحث القليلة الجليلة الفوائد إنشاء سوق رائجة في بلاد الولايات المتحدة الأميركية لأكثر من مليونين ونصف مليون بوشل للتفاح التالف الذى كان فاقد النفع هناك كل سنة . والبوشل يعادل ثمانية جالونات .

وكذلك أتيح لهم الانتفاع باللحاء الذي يسقط عادة من أشجار الشوكران الضخمة التي يقطعها الحطابون من مناطق شمال غربي المحيط الهادي إذ وُجِدَ لها مكان صالح في علم الكيمرجي ، لأن العلماء استطاعوا أن يستخرجوا من تلك القشور مقادير مربحة من مادة التنين المستعملة في صناعة دبغ الجلود ، وناهيك بالمنافع الجديدة التي ابتدعها علماء الكيمرجي من نباتي القطن وفول الصوية إذ استطاعوا في زهاء عشرة أعوام جعل ذلك الفول الشرقي العام محصولاً كبيراً من الغلات الأميركية التي تربى على مائتي مليون بوشل في السنة حيث يستخرج منهُ زيت للتزييت والطلاء والعجائن الكيميائية . وتتخذ منه بروتينات وأغذية للانسان وعلف للحيوان ، وتستخرج منهُ أيضاً خيوط للنسج . وكذلك ما فتىء أولئك العلماء يهتدون إلى منافع جديدة للقطن ومنها استعماله عوضاً من الجوت الذي كان يستورد من بلاد الهند لصنع أكياس الرمل .

وكان البارود العادم الدخان ، يصنع عادة من زغابة القطن ونقصد بها الشعر الزغبيّ الذي يبقى لاصقاً ببذور القطن ، بعد إنتزاع التيلة منها . فاخترع علماء الكيمرجي آلات خاصة تقوم بتقطيع تيلة القطن نفسها قطعاً قصيرة تشبه هاتيك الزغابات ابتغاء استعمالها في صناعة ذلك البارود بمقادير جزيلة جدًّا . ثم ختم الكاتب الأميركي بحثه هذا قائلاً : ما من أمة تستطيع الطموح إلى المستقبل ثابتة الجأش ، إذا كان رخاؤها مرتبطاً بالمواد الأولية المعدنية وحدها ، لأن هذه المواد تستنفد دائماً أسرع مما تتجدد . وطالما نبهنا علماء الجيولوجيا إلى قرب الزمن الذي سوف تفرغ فيه منابعنا من نفطها ومناجمنا من حديدها وغيره من الفلزات وذلك لكثرة ما نستهلكه منها . ولكن لا خوف علينا ما دام في وسعنا إنتاج ما نحتاج اليه من أي مصدر زراعي . فيعوضنا عما نستنفده من مقادير المعادن والزيوت المعدنية . وكلما كثر اعتمادنا على العجائن الكيميائية التي تصنع من المصادر النباتية ، قلّ تعولينا على تلك المعادن القابلة للنفاد . وكذلك كلما اشتد إقبالنا على استعمال الوقود النباتي والزيوت النباتية لتزييت آلاتنا ، قلّ خوفنا من استفراغ منابع زيتنا .

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

المقتطف ، دسمبر ١٩٤٤

المشتمل

١ — المسائل

اللغة والقومية	محاضرة	بقلم	الدكتور بشر فارس

٢ — الكتب

المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن	نقد	بقلم	أحمد محمد شاكر
المعري ذلك المجهول	—	—	محمد شوقي أمين
٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء	—	—	عبد السلام محمد هارون

كتب ظهرت :

تاريخ النبات	—	—	*
سيرة أبي العلاء وفلسفته	—	—	*

٣ — المجلات

نشرة المباحث العربية		بقلم	*

٤ — الاستدراك

« الامتاع والمؤانسة »	الجزء الثالث	بقلم	مصطفى جواد

٥ — التعقيب

في الشعر الحديث		بقلم	زكي طليمات

١ — المسائل

اللغة والقومية

محاضرة ألقيت في « كلية المقاصد الاسلامية » ببيروت
في السابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٤

يسعدني ويعلي من شاني أن أجلس بين أيديكم في بلد ثغره وسهله وجبله قد أخرجت في العصر الحديث جمهرة من العلماء الأعلام صرفوا هممهم الى لغتنا الشريفة، فهذبوها وأغنوها وقيدوها وأعلَوها، وكان الزمن الجائر قد جرها إلى الترهل والضآلة وإلى التفكك والحقارة بعد ماضٍ زاهر ماجد.

فبفضل الشدياق والأحدب واليازجيين والبستانيين والأسير ثم بفضل الشرتوني وعبد الرحمن سلام وأضرابهما أستطيع أن أتحدث اليكم بهذه اللغة السليمة وتستطيعون أنتم أن تصغوا وتلقطوا. هؤلاء الأعلام هيأوا لنا سبيل التفاهم وهيأوها لكم فيما بينكم على بساط مديد متقَن الصنعة. رحمهم الله رحمة واسعة، فإنهم من روّاد القومية من حيث لا يشعرون وبناة التآلف على أسٍّ ثابت.

جئتكم اليوم وفي صدري أشياء من حال لبنان الحاضر لا يستطيع العامل في ميدان الفكر أن يسهو عنها وأن يمضي، وإن كان دأبه العلم الصرف والأدب المحض. ولا تظنوا أني أبتغي توجيهكم في هذا دعوى ليست والله من شيمتي، ولكن في نيتي أن أذاكركم في شأنٍ شاملٍ لكم ولي أيضاً، وهو شأن القومية ورسوّها وعلوها.

• • •

إنما شرط القومية تلاؤم دفين بين أبناء الأمة وتساير من جهة المعنى ومن جهة الحس جميعا. وقد استقام لعلماء الاجتماع لهذا العهد أن للقومية مقوّمات. وقد اختلف العلماء في قيم هذه المقوّمات وذهبوا مذاهب في تغليب إحداها على الأخرى. وكيفما كانت الحال فلسنا ههنا بسبيل البحث المجرد، ولست بسائق إليكم حديثاً في علم الاجتماع. وإنما أريد أن أجري

الكلام في جهة العمل من طريقٍ وضعي لا شأن للتخيل فيه .

لنعرض المقوّمات التي انتهى إليها الباحثون ، ولنتصفحها على ضوء المجتمع اللبناني القائم اليوم قياماً حقًّا مستقلاً بنفسه ، لعلنا نصيب ما قدر كل مقومة لديه ، وما مبلغ حظها من القوة والرسوخ .

صنف العلماء تلك المقوّمات فوجدوها هذه : الأرض ، والدين ، والدم ، والماضي مع الرغبة في الاستمرار ، ومصلحة العموم ، ثم اللغة .

—أما الأرض ، فمما يورث الأسف أن لبنان بقع بقع , وكل بقعة منطوية على نفسها ، لأهلها تصوراتهم ونزعاتهم . فمن هذا أن لسكان جبل كسروان مثلاً لا تجدونها عند أهل البقاع . حتى المدينة ينقسم أهلها على أهواء ، ففي بيروت أحياء ، وكل حي يرى على طريقته ويسعى ويؤمل . أضيفوا إلى هذا أن بقعاً أُدرجت في لبنان من عهدٍ قصير فدخلته وما أحسبها داخلته ، وذلك لسببين : أما الأول فقرب عهد الادراج ، وأما الثاني فدخولها في أرض توزعت جهاتها وتضاربت كوَرها . وخلاصة هذا أن الأرض اللبنانية لا تستطيع ان تضم أبناءها فتركزهم في مستقَر تتلاءم أطرافه .

هذا ويتفق للأرض على وجه العموم ألا تصلح لتكون مقوّمة من مقوّمات القومية ، فهذه بريطانية العظمى — وقوميتها فوق الشبهة — مقسومة قسمين متنافرين : إنكلترة وسكوتلندة . وقد لمس هذا منكم من قصد إلى بريطانية فجلس إلى ابن سكوتلندة وسمعه يقول : « لست بانكليزي » . غير أني أربأ بكم أن تذهبوا أبعد مما أذهب فيزعم زاعمكم أن أقسام أرض لبنان إلى انفصام واقتطاع ما دامت على غير تواطؤ وتماثل .

—وأما الدين فخيرٌ لي ولكم أن نمر به سُرعاناً وليس ذلك من باب الخشية . ولست ممن يخشى النظر في الأمر الراهن وإن وعر مسلكه ، فقد آن للمفكر الحر المخلص أن يجبه كل مشكلة بما قد يكون مكروها — ولكن الاسراع ههنا سببه ضجر في طياته ألم حزّاز تغذوه دهشة ملحة ، هي الدهشة من قوم يضربون في أرض واحدة وبعضهم إلى بعض ينظر نظرة المتعدي مرة والمستعدي أخرى . لنمر سراعاً فالهواء — الله أعلم — إلى غير صلاح . وبحسبي أن ألفظ كلمة واحدة هي « الطائفية » فأستخلص مما تثير حول حروفها المريضة أن الدين في لبنان هيهات أن يكون معقل انضمام ومحور التفاف . وهنا كذلك لا تذهبوا إلى أبعد مما أذهب إليه فيزعم زاعمكم أن الأديان إذا تباينت في بلدٍ واحد مجلبة للانفصال ، فهذه ألمانية وهذه روسية كلتاهما تضم مذاهب شتى وليس شك أنها على قومية فعالة .

— وأما الدم فلا أعني نقاوته وتحدره كذلك من عروق الجدود حتى عروق البنين. فالأمر - وإن تشبث به قوم وأنهضوا عليه سياستهم وتدبيرهم - أدخل في باب الأسطورة منه في باب العلم، ولاسيما في قطر توافدت عليه أجيال من الناس فاتحين أو فازعين. لست تلك النقاوة أعني ولكني أريد امتزاج الدماء بين الفئات المختلفات التي بقيد الحياة.

ولا يخفى على أحدكم أن حالكم على عكس ذلك لأسباب دفائن لم يحن بعدُ النظرُ فيها والحكم. ذلك بأن الأمة لا تثب دفعةً واحدةً من انزواء أجزائها بعضها عن بعض إلى التحامها جملة. التدرج هنا أفضل وأحكم وإنما المعول على تخلص القلب وتفتح الروح: صدق وسمو. إذن ليس في وسع الدم أن يشارك في تلاؤم الأفراد ولو بحظ يسير.

— وأما الماضي وما يحدثه من الرغبة في الاستمرار فإني أراكم تلتفتون إلى عهود وأمم، فهذا يصعد حتى زمن متقادم دارج فتأخذه الفينيقية، وذاك يتشبث بالعربية، وثالث يخلطها بالإسلام عفواً. وعن هذه الأصول تنشق فروع.

فكيف توجهون المضيّ على سَمت واحد وحاديكم غير واحد. إنما الماضي - كما يقول الفيلسوف برجسن - نافذة منها يُطل المطل على المستقبل. ونافذتكم على فتحات متباينات. فهذه أبصاركم زائغة، يتخاطفها الشمال والجنوب ومطامحها مقسمة بين تشريق وتغريب. وإنما غاية اضطراب العين انتشار فعجز. حمى الله أعينكم! والماضي، كما ترون، لا يعبّد لكم طريق المستقبل الضمّام لخطاكم بل هو يحرف بعضها عن بعض.

— وأما مصلحة العموم - وهي القومة الأولى للقومية البريطانية مثلاً - فأراكم لم تستوضحوها بعد. ولا لوم عليكم، فالعالم اليوم على تجاذب وتدافع. فأنّى لكم أن تتجهوا الوِجهة الصالحة النافعة؟ الضباب حول الخلق كافة، فلحاظهم على تفرق وتحير. ثم إنكم لا تزالون في بدء تدبير شؤونكم، فان جربتم هذا فلم تجربوا ذاك، وإن امتحنتكم السياسة من شقٍّ فلم تمتحنكم من شقٍّ آخر. فأنتم لا تنفكون في تقري الباب الذي يولجكم إلى النعيم، وتحري الحاجب الذي لا يخفي سيفاً. فحكمكم في مصلحة عموم أفراد الأمة لا يزال صريع المنازعة يلفه الغموض والفرض والحدس.

• • •

بقيت اللغة. فهل أحدكم يشك أنكم على لغة واحدة. أجل أخبرني صديق أثير أن نفراً يقولون بأن للبنان لغتين، فهذا زعم لا ينهض له دليل. فلغتك إنما هي التي تنطق بها

سليقةً أول ما تنطق ، ثم تأخذها سماعاً واعتياداً لا تكسباً وتكلفاً . وإن بدا لنفر أن يحرّفوا ألسنتهم عن أصولها فذلك شأنهم وحدهم .

إن لغتكم هي العربية رضيتم أو كرهتم، حسنت لديكم أو ساءت .. تلك حقيقة لا تُرد . وعلى صعيدها تلتقي خطاكم جميعا. فإن وهنت القوميات الأخرى أو بطلت فإن اللغة هي المقومة الحافلة الفريدة التي اتيحت لكم ولا تنفك بين ايديكم . هي ملككم جميعاً ، اشتركتم على اختلاف مذاهبكم ومناهلكم في تسويتها ورفعها . كلكم ابنها وراعيها ، فمن العسف أن يقول قائل : « أبت العزبية أن تتنصر » . تلك قولة لفظ بها من لفظ من نحو مائة سنة وهو لاهٍ ، وبعض اللهو إثم . هي قولة فيها بهتان بل فيها عدوان ، ونحن اليوم إلى الحق ننظر وبالوئام نستبشر .

هذا وليست اللغة بالمقومة التي يقل قدرها في أمر القومية . هل غاب عنكم أن دانتي الشاعر الايطالي العظيم جمع كلمات المناطق الايطالية بفضل ملحمته « الاضحوكة الآلهية » ؟ ثم اذكروا أن آداب النهضة الفرنسية بشعراء الپلياد Pleïade وبأمثال رابليه ومونتني ثم بالمتحذلقات وما نبذنَ من تراكيب الأقاليم ثم بالمجمع وما فرضه من قواعد النحو ، اذكروا أن كل ذلك أعان على لمّ الأطراف وضم إداراتها من طريق التعبير المؤتلف . وكذلك الأمر في غير إيطالية وفرنسة . فهذه العرب ألمْ تهيّئ غلبةُ لغة قريش نظمَ شمل القبائل ؟ ثم هذه بوهيمية وإرلندة في العهد الحديث ألم يرجع أهلها إلى الوعي القومي بفضل اللغويين والشعراء والمؤرخين الذين أحيوا لغة القوم ونشروا آدابها ؟ ثم هل يفوتكم أن اللغة هي الحصن الأخير المتمكن في وجه الغازي القاهر ؟ ألم تستمسك شعوبية الفرس بالفارسية ؟ وما الذي أعجز الحكم التركي سوى العربية على اضمحلالها ؟ وپولندة تلك الضحية الدائمة ، أليست لغتها التي ظلّت تنفث الوطنية في عزوق أبنائها البؤساء ، وفنلندة هل كانت صرعت صولة السويد لو لم تنبذ اللغة السويدية شيئاً فشيئاً لتحل محلها اللغة الفنلندية بعد أن دوّنت آياتها وهذبتها ؟ ولكم بعد ذلك عبرة اللغة العبرية ، وكلكم لمسها بيدٍ نافرة.

• • •

بين أيديكم عُدة تفاهم محكمة مكينة، فعليكم إياها وبها . الزموها وتمسكوا بها وبالغوا في صونها وصقلها ، كما صنعت العرب في المئتين الثالثة والرابعة ، وكما صنع ڤرجيل وهوراس وأقرانهما من قبل فبلغوا باللغة اللاتينية ذرى الغزارة والليانة واللطافة . وإن لم تفعلوا تصدأ لغتكم من طول الإهمال وتنفلت من بين أناملكم، فتقعدوا وقد غاب من تحت أرجلكم

ذلك الصعيد الأوحد في حدود أرضكم . ومن وسائلكم في الصون أن تفرضوها في كل موضع فلا تقبلوا منها بديلا . وان تخاطبتم وتراسلتم فبها أولاً ، وإن حادثتم غير الناطق بها في بلدكم فبها ثم بلغته . وأما المدارس فلا تأذنوا في أن تجري اللغة في فصولها مجرًى هيناً وأن تنتحي ناحيةً فتغلبها على أمرها لغة أجنبية عن ألسنتكم . في ذلك استرخاء ووراءه ذل . ولتشتدَّ مراقبتكم ولتنبسط على المناهج والنماذج ، ولا بدَّ أن تطلَق على المدرسين أنفسهم : هل يحذقون هذه اللغة ؟ وأعلى من هذا : هل يحبون هذه اللغة فيحببوها إلى التلامذة ؟ ثم لتُقرأ العلوم والآداب بهذه اللغة أيضاً حتى يتدرَّب اللسان ويذرَب وحتى يشعر صاحبه أنه يستطيع أن يضعهُ حيث يشاء ، فتجلّ اللغة في عينه ، فتظل المقومة الشريفة الرفيعة .

وأما وسائل الصقل فاجتهاد متواصل في تهذيب هذه اللغة وإغنائها . وهذه حكومتكم مقبلة على إنشاء مجمع علمي ستكون علوم اللغة من شواغله ، وفي المأمول أن ينشأ لوجه العلم وأن يعمل فيه أصحاب الكفاية والدراية ، فلا يكون إنشاؤه مظهراً من مظاهر الأبهة والتهويل ، وإن آفة شرقنا البهرج ، ثم لا يكون طوع الطائفية تلك النكبة التي لا يفرح بها غير جَهَلة أو فَسَقة .

وليس معنى كل ذلك أني أتشيع للعربية وأغض البصر عن سائر اللغات . فهذه حماقة . ولكني أسألكم أن تنزلوها المنزلة الأولى حتى تبقى على سلطانها بل تمضي فيه . ولكم بعد ذلك أن تقبلوا على اللغة التي تجذبكم . والخير ترك الايثار ، لأن الايثار يورث الهوى ، وحليف الهوى التعصب ، فإن تعصبتم للغةٍ ما زحمت لغتكم ، والقلب لا يحمل اثنين . ثم إن الإقبال على لغات متعددة يشق لكم الأفق فيفسح للفهم ويوسع للإدراك ، إذ لكل لغة أسرار وخصائص من جهة القواعد ومن جهة الآداب ، وبنا حاجة إلى كل ما يفتِّح ويصعِّد حتى نشد من تلك المقومات الواهنة ونعالج تلك المقومات الضائعة .

• • •

وبعيد عن ذهني أن أحرككم إلى الاستمساك باللغة لتتخذوها غاية فتصرفوا إليها نشاطكم صَرفاً ، وتجعلوها المقصد الأسمى ، كلاَّ ! أنا أدعوكم إلى الاستمساك بها على أنها وسيلة فعالة . وأملي كبير في أن تعينكم اللغة على مراجعة المقومات الأخرى ، ودعوني هنا ألوِّح وأمثل :

أما الأرض فمن طريق المواطأة على القراءة الواحدة والفهم الواحد تتساير الذهنيات إلى أنحاء متقاربة ثم مع الزمن إلى أنحاء متماثلة .

وأما الدين فبالاطلاع على الآثار يعلم الجاهل أن الهوّة بين هذه الفئة وتلك لم تكن على السحق الذي نعانيه ، فالنصراني مثلاً أعان المسلم في بعض فتوحاته وكرّاته بفضل القربى والأخوة ، والمسلم ، مثلاً ، كثيراً ما فطن إلى أن دينه إلى السماحة .

وتجدون أشباه هذا في تاريخ بلدكم ، فيتجسم لكم في الواقعات الرائعة . منها أن المسلمين والنصارى جاهدوا صفًّا واحداً في أثناء الحرب الماضية فأوقع بهم الترك ، من غير تمييز ، الضيم والشنق والقتل .

ومن قبل اتحدت طوائف لبنان كلها ، وذلك لما غزا المماليك جبل كسروان في خاتمة المئة الثالثة عشرة ، فانضمت النصارى من موارنة وملكيين ويعاقبة إلى الشيعة والنصيرية وإلى الدروز وأجمعوا فيما بينهم — كما جاء في تاريخ المطران تادروس — على تفويض أمرهم إلى بيت « بِلمَّع » (أبي اللمع) الدرزي وكان فيه الشرف والتقدم .

وأما الماضي وما يحدثهُ من الرغبة في الاستمرار فإن عرضتم ألطاف الحضارة التي ورثتم لغتها علمتم أنها في الأوج من بعض النواحي وفي بعض العهود ، وأنها أمدت الحضارة الاوربية الحديثة ، فهي خليقة بأن تكون منهلاً صافيا . ولكم أن تختاروا وأن تنبذوا ، وأن تستلهموا وأن تستميضوا ، وطِلبتكم التقدم والوثبان . ولكن لا بدَّ لكم من أن تجمعوا الأكف لتلتقطوا الماء من نبعٍ واحد . وإنما اللغة التي نشأتم عليها هي الدرب المؤدي إلى النبع . هل لدى أحدكم درب حيّ آخر ؟ إن وجود النبع لا يكفي .

• • •

تلك خواطر خطرت لي وأنا في شِعاب جبلكم أمضي . وإني لأعلم أنها موضع مراجعة ، ولا يخفى عليَّ أنها منار نقاش ، ولكني أردت أن أبثكم إياها قبل أن أغادركم لعلي أن أفيد ، وإن لم أُفِد فصدري يملأه الود ، على كل حال ، والإخلاص .

بشر فارس

٢ - الكتب

• المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن •

تأليف جولد تسيهر — ترجمة علي حسن عبد القادر

١٦ × ٢٣ سم ١٨٤ ص القاهرة سنة ١٣٦٣ ﻫ ١٩٤٤ م

يعرض المستشرقون لعلوم الاسلام وتاريخ الاسلام عرضاً علمياً في بعض أحيانهم، وعرضاً كله غرض في بعض أحيانهم.

ولقد كان المسلمون — ولا يزالون — في حاجة إلى معرفة آراء هؤلاء، سواء منها ما كان رأياً عن معرفة وثبت وإنصاف، وما كان عن هوى وغرض، حتى يدركوا مقاصد القوم ونياتهم نحوهم ونحو بلادهم. فما أتى المسلمون في القرنين الماضيين إلا من جهلهم ما يضمر بعض أولئك القوم لهم وما يقولون فيهم.

وكنا — نحن الأزهريين في هذا العصر — نجتهد بكل وسيلة نستطيع، أن نتعرف آراء أولئك في تاريخنا وعلومنا، ونقرأ كل ما يترجم عنهم في الكتب والصحف والمجلات، ونتصل بمن عرفوا اللغات الأجنبية وبمن تعلموا في أوربة من المصريين، ونقتني آثارنا النفيسة التي ينشرها المستشرقون، نستطلع بذلك كله الأخبار والآراء. ثم بعثت بعض البعوث منا إلى أوربة للدرس والمعرفة والتنقيب، وعاد بعض من بُعث، فتوقعنا أن يقوموا ببعض هذا الواجب، واجب تعريفنا تعريفاً علمياً بآراء علماء أوربة فيما عرضوا له من دقائق العلم الإسلامي، فلم يفعلوا، ولا نزال نتوقع أن يفعلوا. ولعلّ لهم من أحداث هذه الحرب بعض العذر، فقد كان أثرها شديداً على الورق والطبع والنشر.

ولكن أخانا علي حسن عبد القادر لم تقف دونه العقبات فيما يستطيع، فأخرج لنا هذا الكتاب في هذا العام، ونحن على ثقة أن سيتبعهُ كتباً أخرى. ولعلّ في نشاطه وعمله هذا ما يحفز إخوانه على أن يقوموا بحركة مباركة في الترجمة والنشر، قياماً ببعض الواجب عليهم نحو أزهرهم.

وقد اختار المترجم هذا الكتاب لأنه « لشيخ من شيوخ المستشرقين (وهو مجري) معروف بطول الباع معرفة مستفيضة ... وقد كان هذا الكتاب آخر كتاب لهُ، ملاه

بتجاربه في البحوث الإسلامية ... حتى إنه ليعدُّ كافياً لتعرف آراء المستشرقين، ومصادرهم ومؤلفاتهم، وزبدة ما يمكن أن يعرضوا لهُ من نقد وتقدير في هذا الصدد».

وفي هذا الكتاب من الخطأ ما يحتاج من أجله إلى درس كل مسألة من مسائله درساً دقيقاً وافياً، حتى لا يغتر قارئه بظاهر القول فيقع فيما وقع فيه المؤلف. ولعلّنا نوفق إلى صنع ذلك في إحدى المجلات الخاصة بمثل هذه الأبحاث أو في كتاب خاص، بعون الله وتوفيقه.

ولم يكن المجال واسعاً في ترجمة الكتاب أن يتعقب الأستاذ المترجم مسائله تفصيلاً، ولكنه تعقبهُ إجمالاً في عشر صفحات ألحقها بآخر الكتاب، أجاد فيها جدًّا، قال: «إن نظرة عابرة في هذا الكتاب تجعل القارئ لأول وهلة يقف موقف الحائر المتردد في الحكم عليه: فبينما نرى فيه اطلاعاً واسعاً في الكتب الاسلامية، وفكرة طريفة في عرض الموضوع عرضاً علميًّا، نجد في الوقت نفسه أن المؤلف قد تخلى عنه قلم العالم النزيه في نقد المسائل نقداً سليماً ... ولعلَّ هذه الفرصة في عرض هذا الكتاب تبين للناس بعض ذلك، حتى يقفوا موقف الحيطة والحذر إزاء ما يقرؤون (للمستشرقين) وموقف الريبة لهم، حتى يتبينوا، ويعرضوا ذلك على مصادره الأصلية» ص ١٧٤.

والذي نراه نحن فوق هذا أن الهوى قد يغلب حتى يضع المؤلف موضع الشك في أمانته في اختيار ما ينقل.

فقد عرض المؤلف — مثلاً — لأول سورة الروم «غُلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون في بضع سنين» فذكر المعروف في القراءة والتفسير والسير والتاريخ: أن الفرس انتصروا على الروم ففرح المشركون بهزيمة النصارى أهل الكتاب وحزن المسلمون، وأن الآية بشرتهم بنصر الروم على الفرس في بضع سنين. ولكن المؤلف لا يرضيه أن يسير على الجادة الواضحة، ويريد أن يتبع طريق التشكيك في قراءات القرآن فيقول ص ١٩: «ولكن قراءة هذه الآية على هذا الشكل (١) لم يتفق عليها عند جميع القرّاء فقد قرأها أكثرهم: «غَلبت» (٢) ... وأن ذلك يتعلق بانتصار الروم على بعض القبائل العربية بالشام. وأصحاب هذه القراءة يذكرون أن فيها تنبؤًا للنبي مما حصل بعد تسع سنين بعد هذا الوحي من انتصار المسلمين على البيزنطيين. ونحن نرى أن القراءتين متناقضتان في المعنى، فالغالبون في القراءة المشهورة هم المغلوبون في القراءة الأخرى،

---

(١) أي قراءة «غلبت» بالبناء للمفعول، و«سيغلبون» بالبناء الفاعل

(٢) أي قراءة «غلبت» بالبناء للفاعل، و«سيغلبون» بالبناء للمفعول

ومتعلق الفعل في قراءة على الفاعلية ، وفي أخرى على المفعولية » .

وهذا الذي حكاه غير صحيح ، أعني ادعاءه أن أكثر القرّاء قرؤوها « غَلبت » بالبناء للفاعل ، و « سيَغلبون » بالبناء للمفعول . وليس هذا عن سهو منه أو قصور في البحث ، فإن اطلاعه واسع جدًّا على كتب التفسير والقراءات ، كما يبدو من كتابه . وإنما قصد إلى غير الصحيح .

وذلك أن كل القراء السبعة ورواتهم ، وسائر القراء العشرة ، وسائر القراء الأربعة عشر لم يقرؤوها إلاّ « غُلبت » بالبناء للمفعول ، و « سيَغلبون » بالبناء للفاعل ، قولاً واحداً وقراءة واحدة . والقراءة الأخرى التي نسبها إلى أكثر القراء قراءة شاذة جدًّا ، نقلها ابن خالويه في كتاب « القراءات الشاذة » الذي نشرته جمعية المستشرقين الألمانية بتصحيح المستشرق برجشتراسر سنة ١٩٣٤ ص ١١٦ ، ونسبها للنبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وابن عمر . وهذه نسبة ضعيفة لم تثبت بإسناد صحيح ولا ضعيف عن النبي ، ولم يروها أحد من أهل الحديث . نعم ، روى الترمذي في سننه بإسناده عن أبي سعيد ما يشبه هذا ، وحكى عن شيخه نصر بن علي الجهضمي أنه كان يقرؤها « غلبت » بفتح الغين ، ولكن إسناد حديثه ضعيف جدًّا ، وأخطأ الترمذي فحكم بأنه حديث حسن . (انظر الترمذي ج ٢ ص ١٥٤ ، ٢٠٦ طبعة بولاق ، وشرح المباركفوري على الترمذي ج ٤ ص ٥٩ — ٦٠ ، ١٦٠ طبع الهند) . وقد ردّ على الترمذي وبيَّن أن الحديث ضعيف . وروى ابن جرير الطبري في التفسير ج ٢١ ص ١١ من طريق « الحسن الجفري عن سليط » أنهُ سمع ابن عمر يقرأ ذلك . وهذا إسناد ضعيف جدًّا ، الحسن بن ابي جعفر الجفري ضعيف منكر الحديث ، وشيخه سليط مجهول ، فمثل هذا الإسناد لا تثبت به قراءة ولا كرامة . ثم بيَّن الطبري الصحيح من القراءة فقال : « والصواب من القراءة في ذلك عندنا ، الذي لا يجوز غيره (الم غلبت الروم) بضم الغين ، لإجماع الحجة من القراء عليه » .

لا نظن بعد هذا أن مؤلف الكتاب أخطأ فيما حكى . إنما الواضح الذي لا نشك فيه أنه علم الصحيح وعدل عنه ونقل غيره ، عارفاً أن القرّاء أجمعوا تقريباً على القراءة المعروفة ، ثم نسب القراءة الشاذة المنكرة إلى أكثرهم .

وبعد : فإن في الكتاب حافزاً إلى البحث والتوسع ، بما يضمه من نقول وآراء لم ينشر من مثلها في العربية كثير . ويجدر بالعلماء أن يعنوا به وبأمثاله ليستفيدوا طرق البحث والنقد ، بما يرسم من المناهج ، ثم ليعرفوا ما يقال من حق ومن باطل ، وليروا ما يثار من شبه وشكوك ، يجب عليهم أن يدفعوها ، وفاءً بميثاقهم ، وأداءً لأماناتهم .

أحمد محمد شاكر

• المعري ذلك المجهول • بقلم عبد الله العلايلي

٢٣ × ١٤ ½ سم ١٣٨ ص منشورات الاديب بيروت ١٩٤٤

أوْضح صاحب هذه الرسالة — وهي من طلائع همة مجلة الأديب — في المقدمة أنهُ لا يعني ترجمة حياة أبي العلاء ، ولكنهُ يعمد إلى ترجمة فكره . وأنهُ لا يتناول أدوار استحالات هذا الفكر ، ولكنه يخص ببحثه الدور الأخير الذي انتهى إليه المعري ليعلن فلسفته . ثم ذكر أن معظم من درسوا ذلك الشاعر الفيلسوف لم يكشفوا أولاً « طريقته » مع أن كشف الطريقة هو السبيل الأوحد إلى فهمه . وقال إنه استخلص الطريقة النظرية عند المعري ، وعَرَضه في ضوئها جهد الطاقة .

وقد قسم الرسالة قسمين ، الأول تحتوي فصوله مقدماتٍ وتمهيداتٍ في مراجع فلسفة أبي العلاء ومنهجه اللغوي وأمثلة من بيانه تطبيقاً لهذا المنهج وتأييداً له . والقسم الآخر تتناول فصوله حديث الفلسفة العلائية في صميمها ، ففيها مباحث تبسط عناصر منطقه وأساسه الفلسفيّ التوحُّديّ في الإلهيات والطبيعيات والمجتمع ونظامه .

والرسالة في مجموعها جديدة الفكرة ، طريفة المنحى ، فهي تعالج إثبات الرمزية العميقة في آثار أبي العلاء ، فتجعله صاحب أقدم أثر رمزيّ رائع ، وتحقُّ له أن يسمَّى أبا الرمزية في الأدب العربي . وهي أيضاً تحاول إثبات تعلق أبي العلاء بالباطنية وأساليبها في فهم الحياة واستشفاف ما وراء الظواهر ، واصطناع أسرار اللغة وطبائع الحروف وما لها من مدلولات عددية .

وأما أسلوب الرسالة فهو إلى المسلك العلميّ أقرب ، يستخدم أشتات المواضعات الدائرة في المنطق والفلسفة ، ويؤثر دقة التعبير في صوغ اللفظ ونسج الجملة ، ولا تخطئه السلاسة أحياناً على وعورة الطريق الذي ينتحيه في تجلية المعنى وتعزيز الرأي .

وفي غضون الرسالة ألوان من التوجيهات السديدة ، من مثل الكلام في مصادر الغفران ص ٦٤ ، ومن مثل تعليل دعوة المعرّي إلى محاربة النسل في ص ٢٩ إذ يقول الكاتب : « ومن الخطاء الظن بأن المعري حارب النسل بناءً على فلسفته ، وإنما أخفقت دعوة التوحّد وشعر بإخفاقها فيئس من الإصلاح البشريّ ، فنادى بالتهديم ، نادى بخصي الحياة ! . » ومن مثل تعليل التزام ما لا يلزم في ص ٧٥ إذ يقول : « فقد عرفنا أن لزوم ما لا يلزم يعبر عن ظاهرة نزعة باطنية بما فيه من رويّين ظاهر وباطن ، وعرفنا أنه اعتزال بالقافية وأخْذ لها بطائفة من

الوسائل القاسيةَ ، وعرفنا من سيرة المعري أنه أخذ نفسه بمثل هذه الوسائل المضنية ، فكان في محبسين مثلما هي في رويَّين . إذن فهو القافيـة الملتزم فيها ، أي المتوحدة مثلما كان متوحداً » .

وكذلك الفصـل الموسوم بالمنهج اللغوي في ص ٣٠ ولواحقه في صفحات أُخر ، ولعلّ ذلك أمتع اللوامع الفكرية في هذه الرسالة وابعثها على العجَب .

ويبدو أن طرافة « الطريقة » التي كشفهـا صاحب الرسالة ونادى بهـا لفهم المعري، ساقته إلى بعض الإسراف في تصور الرمزية والـكنائية والباطنية ، وتمثُّل سلطانها على آثار شاعرنا الفيلسوف . ولئن صحت هذه الطريقة بنماذجها التي قدمها الكاتب ليكونن « المعري ذلك المجهول » مجهولاً حقـًا عند الناس كافة ، سواء أفي العصر الحـديث كانوا أم في الأعصر الخالية . وقد يظل بيانه كله مطلسماً حتى يطبق صاحب الرسالة طريقته في الشرح على سائر نصوص المعري، إذ لا نرى شرح «الطريقة» وحدها بمجزئ في فهم البيان العلائي على النحو الذي آثره صاحب الرسالة وأبانه فيما اختار من نماذج .

ففي ص ٤٦ يذكر الـكاتب قول المعري : « قد علم الحبر الذي نسب إليه حبريل » ويفسره بقوله : « معناه الباطنيّ على مقتضى علم الحرف الروحاني هو اللاهي أو اللاعب الربانيّ ، لأن مخرج الحاء عشرة وحرفه ي ، ومخرج الباء أربعة وحرفه د ، ومخرج الراء مائتان واثنان ويرد إلى أربعة وحرفه د . وهو يؤلف كلمة ددي نسبة إلى الدّد أي اللعب » .

وفي ص ٥٩ يذكر كلمة التينة التي فسرت بها الحماطة الواردة في ديباجة الغفران ، ثم يعلل اختيار التين للـكناية فيقول : « ستـر السوءة بورق التين ليس هو إلاّ الخداع والتلفف بورق التين الذي يساوي باطنيـًا كلمة (الدين) وذلك لأن ت بأربعمائة وتـرد ُّ إلى أربعـة وحرفها د » .

وفي مطاوي الرسالة مثل هذا التحميل ، ولعلهُ من باب الإغراق في استبطان الـكلام واستخراج ما لم يقصد إليه كله مُمليه .

والرسالة تمثّـل فكرة بديئة ، وتدل على براعة حِـذق . وبحسبها أنها تشق في درس المعريّ أفقاً غُفـلا .

محمد شوقي أمين

المحرر بمجمع فؤاد الاول للغة العربية

• ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء • بقلم يوسف أسعد داغر

١٥ ½ × ٢٠ ½ سم ٥١ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

هو عرض عام ، ينتظم الباب الأول منه مصنفات أبي العلاء ، والثاني والثالث منه المصادر العربية والافرنجية التي تناولت أبا العلاء ، والرابع سجل للمهرجانات التي نظمت في أنحاء البلاد الشقيقة ، وما ألقي في كل منها من المحاضرات والأبحاث .

والكتاب من كتب الفهارس التي تعتمد على الإحصاء الدقيق، ولكنه مقصر في المصادر العربية القديمة ، كما يتضح من مقابلة ثبَتهِ هذا بثبت لجنة أبي العلاء في « تعريف القدماء بأبي العلاء » القاهرة ١٩٤٤ ، من مخطوطات ومطبوعات . وأما الأبحاث المعاصرة فقد تمكن الأستاذ داغر من الإحاطة بأكبر عدد ممكن منها بما يستحق بهِ الثناء .

وقد وقعت بعض أخطاء في إثبات كتب أبي العلاء ، منها « بحر الزجر » صوابه « نجر الزجر » أي أصل الزجر ، كما في « تعريف القدماء » ص ٤٢ وكما صرح به ابن العديم في « الانصاف والتحري » ص ٥٣٧ . و« الرياش المصطنعي » صوابه : « الرياشي » بالنسبة إلى أبي رياش (ص ٤٦) . و« رسل الراموز «صوابه : « رسيل الراموز » والراموز : البحر ، ورسيله : ماؤه العذب (ص ٤١) . و « نظم السور» صوابه «تظلم السور» ، قال ابن العديم ص ٥٣١ :« يتكلم فيه على لسان سور القرآن ، وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ» .

على أن هذا لا يضير الأستاذ المؤلف ، ولا ينقص من تقديرنا لصبره وجلده وتفانيه في سعيه ، فإن هذه الأخطاء وقع فيها قبله كثير من الأدباء .

عبد السلام محمد هارون

• • •

• تاريخ النبات • بقلم أحمد عيسى

١٧ × ٢٤ سم ١٢٦ ص كلية الطب بجامعة فؤاد الاول القاهرة ١٩٤٤

هذا موجز في منشأ علم النبات عند العرب وخروجه من طور إلى طور على تعقد الحضارة وتقدم المعرفة واتساع العمران . وقد بسط المؤلف الواسع الاطلاع الدكتور أحمد عيسى بك أحوال كل ذلك . فسرد اللغويين الذين عنوا بتدوين أسامي النبات المتداولة عند العرب في باديتهم ، أمثال الخليل والأصمعي وابن الأعرابي . ثم عرض للعلماء الذين ترجموا أو ألفوا

في النبات من جهة أنه عقار صالح لصناعة الطب ، فذكر حنين بن إسحاق وثابت بن قرة وابن مسكويه (أي : مسكويه) وابن سينا وابن الهيثم وإسحاق الاسرائيلي وابن باجه . وانتقل بعد ذلك إلى النبات من جهة الفلاحة وذكر ما دُوّن في ذلك ، ثم فطن إلى الرحالة والرواد من أبناء العرب مثل ابن فضلان وابن بطوطة فنقل ما سطروه في باب النبات .

وقد فات المؤلف أن « كتاب تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب » (ص ٩٣) نقل إلى الفرنسية مرة ثانية بقلم Salmon وثالثة بقلم Renaud و Colin . ومع الترجمة الثالثة نشر الأصل العربي (مطبوعات معهد العلوم المغربية ، ج ٢٤ ، باريس ١٩٣٤) وقد استدرك عليه في إفاضةٍ بشر فارس في مجلة « الثقافة » (الرقم ١١٣ سنة ١٩٤١) . ويحسن الاطلاع على تلك الترجمة ، ففي ذيلها فائدتان : الأولى ، ترجمة أسماء النبات بصفاتها وخصائصها إلى الفرنسية مع ردها إلى أصولها اليونانية ، والثانية ، ثبت مستفيض لا غنى عنه . ومما خرج بعد هذه الترجمة ولم يذكره صاحب الموجز الذي نحن بسبيله كتاب الكليات لابن رشد ، وفيه جزء كبير خاص بالأدوية والأغذية ، مداره على النبات والبقول والحشائش . والكتاب منقول بالتصوير الشمسي في المغرب (بوسكا سنة ١٩٣٩) ، ولهذا الكتاب معجم طبي في آخره عمله باللغة العربية الاستاذ الفريد البستاني ونقله إلى الاسبانية غيره .

وهذا الموجز وإن لم تُستقصَ المصادر فيه ولم تقيَّد خطوة ، حقيق بأن يُستقبل بالثناء والحفاوة ، فذلك باب من أبواب ثقافتنا الماضية مهمل في دراساتنا الحديثة .

*

• سيرة أبي العلاء وفلسفته • بقلم هنري لاوست

a vie et la Philosophie d'Abul'Ala' par Henri Laoust

٢٢×٢٩ سم ٤٥ ص نشرة المعهد الفرنسي بدمشق بيروت ١٩٤٤

قد سبق لنا أن نذيع فضل المستشرق هنري لاوست مدير المعهد الفرنسي بدمشق لما وصفنا كتابه النفيس في ابن تيمية (باب التعريف والتنقيب ، يونيو ١٩٤٤) . وهذه رسالة له أخرجها على سبيل المشاركة في إحياء ذكرى المعري ، ونشرها في نشرة المعهد BEO ، ولهذا المعهد ونشرته أيادٍ في الدراسات العربية والمباحث الاسلامية .

والرسالة عرض شامل موجز في آن واحد لترجمة أبي العلاء . وتمتاز بالوضوح والتنسيق ووفرة المصادر . وقد ضمت آخر ما قيل في أبي العلاء سواء في الشرق أو في الغرب مع

انفراد المؤلف بخواطر وآراء لم يتبسط في عرضها . وقد استشهد أيضاً بأقوال أبي العلاء ولا سيما بشعره في اللزوميات فنقلها نقلاً دقيقا . وله في باب الفلسفة فصل عنوانه « الحكمة الأخلاقية » هو تبيين حسن لسلوك المعري وإرشاد إلى غاياته ، مثل الاستسلام إلى العبودية في شمم وثبات وراءهما طلب التحرر ، ومثل العزلة رغبةً في العيش المنزه عن شر البشر ، ومثل الرفق العظيم الذي يولد في الأنفس التسامح والتفاهم والتآلف لأجل المناضلة في سبيل العقل والحب ، ومثل إصلاح المجتمع بتقويم عوج الحكم وصلف الحاكم .

إلاَّ أنه كان بالود أن يتناول المؤلف أدب أبي العلاء بعد ذلك كله فينظر في خصائصه من جهة غربية ، وأبو العلاء حقيق بهذه النظرة ، فقد قال فيه المؤلف في فاتحة الرسالة : « إن شخصية المعري المعمّاة أيَّ تعمية حقيقة عندنا بأن تدرَج في تراث الآداب العالمية » .

*

صوت أبي العلاء بقلم طه حسين

١١½ × ١٦½ سم ١٣١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

لافوازييه بقلم عبد المجيد يونس وعبد العزيز أمين

١١½ × ١٦½ سم ١٢٥ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

٣ – المجلات

• نشرة المباحث العربية • Bulletin des Etudes Arabes

يدير إنشاء هذه النشرة في الجزائر الاستاذ المستشرق الفرنسي هنري بيرس Henri Pérès وهي تصدر بالفرنسية كل شهرين وغايتها إعانة المشتغلين بالآداب العربية على الاطلاع والبحث. ففيها فوائد جمة متفرقة . فمن دراسة إلى ترجمة إلى طرفة إلى تنبيه إلى ثبَت إلى مراجعة المجلات وإلى أخبار أدبية واستشراقية . وفيها أيضاً فصل يهم الطلبة القادمين على الامتحان باللغة العربية . وللنشرة شعار جميل هو : « باب العلم إذا قُرع انفتح » .

وهذه النشرة كما ترى على فائدة غزيرة ، وهي أقرب إلى إدناء الاستشراق منها إلى التأليف والتنقيب . ولكنها يزينها في كل عدد بحث حسن ، من ذلك البحث الموقوف على أبي العلاء في الجزء السابع عشر (مارس – أبريل ١٩٤٤) . ونحن نهنىء مدير النشرة ومخرجها ، وهو عالم دؤوب ، بسعيه هذا ونتمنى له الاطراد .

*

٤ - الاستدراك

• الامتاع والمؤانسة • الجزء الثالث للتوحيدي

صححه وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

هذا الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة هو آخر الأجزاء ، وبه تتم الليالي الأربعون التي حسدتها ألوف ليالٍ على إمتاعيْها الأدبيّ والفلسفيّ ومؤانستيْها الروحية والعقلية ، وإنه لكتاب بارع الأدب محكم الفلسفة ، جمّ الفوائد بليغ الأسلوب ، كثير النوادر ، دال على براعة أبي حيان في التأليف وبداعة التنميق والتصنيف .

فمما ضمنه هذا الجزء وصف طبائع الناس في الإطعام والامساك عنه ، واستحالة أن يحيط العالم علماً بكلّ شيء ، والتحولان الاجتماعي والمذهبي وضرورتهما وشروط السيادة عند العرب والخلال التي لا يأنف الشريف أن يتعلمها ، ووقت إحماد العجلة والإيثار والفتوة والخلق الحسن والخلق السيء ومكارم الأخلاق وحد الشبع وحد السكر ، وحال الموالي عند العرب ، وأخلاق التجار في عصره ، وحال الناس الاجتماعية ، وتأثير الفلك في عالم الأرض ، وإتقان العرب للكلام وتناقض أخلاقهم وحالهم قبل النبوة ، والتوسع في اللغة ، وكراهة البدو للزواج ، والغناء ومنافعه ، ومدح النبيذ ، والسعادة ومقياسها ، والملك ومقامه والصلة بينه وبين الرعية وكيفية سياسة المملكة ، وصفة خلفاء بني العباس وذكر أفضلهم بالإضافة إلى عصر أبي حيان، ومدة الحكم الصالح ، والفرق بين الإرادة والاختيار والمحبة والشهوة والإنشاء والكلام والنفس والروح ونفوس الحيوان ، والعقل ومقاييسه ، والطبيعة وحمقُها ، وتكبير الواحد وتوحيد الكثير، واختلاف الشوق إلى العلوم ومقاديره ، وإمكان التمويه على العقل والفلسفة لتوحيد الله ، وأسباب اختلاف الناس في الأديان والمذاهب والنحل ، وعلة التمسك بالمذهب والدين ، وبيان أن الأمر بما لا يكون سفاهة وخرق ، وحب النفس ومضاره وكون العقوبة للاصلاح وأنّ النبوّات لا تعجل العقوبة ، والسحر وأنواعه ومنه سحر البيان ، والامامة والجدل فيها ، واختلاف الحديث عن النبي محمد — ص — وباب في التعريض والكناية ، وباب في الجوابات المسكتة وأكثرها منقول من كتاب « البيان

والتبيين » للجاحظ ، والطيرة وغير ذلك من طريف الفوائد ولطيف المباحث كوجود معانٍ لا أسماءَ لها وكون الإنشاء أنقى من الكلام وأوسع منه ، وأسباب شغف الناس بأخبار الملوك والأمراء والحكام ، مما يصعب تبيانه لوروده مفرقاً في الكتاب ومبثوثاً في عدة أبواب. وفي آخر الكتاب رسالتان للمؤلف توضحان شيئاً من سيرته .

وكنا نقدنا الجزئين الأول والثاني نقداً طويلاً وبعثنا به إلى الأستاذ أحمد أمين بك فنشر أكثر النقدات مختصرة في مستدرك للتصحيح جعله في آخر الجزء الثالث — هذا المنقود ها هنا — واعتذر هو وصاحبه الأستاذ أحمد الزين من أنهما لم يستطيعا نشره بحذافيره بسبب ندرة الورق ، وإنَّ عملهما ذاك ليستوجب منا الشكر على كل حال .

ولم يخلُ الجزء الثالث من هنات لا يقام لها وزن بالاضافة إلى جمهرة الكتاب وصعوبة مواضيعه . ولقد ثبت أن نشر عالم من العلماء لمخطوط في اختصاصه العلمي برهان قاطع على مثقال علمه ومقدار فهمه ، فالمخرقة في ذلك لا تجوز على العلماء ولا تروج في سوق العلم . وانا ذاكرون فيما يلي(١) هذا السطر هنات الجزء التي أشرنا إليها ، ومثبتون معها إصلاحها:(٢)

جاء في ص ١ س ٨ من الكتاب « فكان من الجواب إن الناس ...» بكسر همزة « إن » والصواب فتحها لوجوب تأويلها مع الذي بعدها بمصدر مرفوع بكونه اسماً لكان ، والتأويل بالمفرد موجب لفتح الهمزة — كما هو مقرر في كتب النحو — وإذا عدت «كان» تامة فان الفتح لازم لها أيضاً .

س ١٤ منها « فكان (من) الجواب أن هذه .. » . وما من سبب لاقحام « من » فان الأصل سليم التركيب . ولكل معنى عبارة ، وقوله « فكان الجواب أنَّ ... » أراد به الجواب كله لا شيئاً منه ولا سائره . وجاء في ص ١٨٦ س ١٤ « فكان الجواب إنَّ المذاهب فروع » والقول فيه كالقول في السابق.

ص ١٤ « خرج ابن المبارك إلى أصحابه فقال لهم نزل بنا ضيف اليوم فقال اتخذوا لي فالوذجاً فسرنا ذلك منه » . وهذا خبر مضطرب . لا يطرد فيه قوله « فقال لهم . . . فقال ... فسرنا ... » ولعل الأصل « فقالوا له نزل بنا ضيف اليوم فقال : اتخذوا لي فالوذجاً (قالوا) فسرنا منه ذلك » أو : « ... فقال لهم نزل بنا ضيف اليوم فاتخذوا لي فالوذجاً فقالوا فسرنا . . . » .

---

(١) لم تستعمل العرب «ولي يلي» إلا متعدياً لانه لا تتم بل لا تصح فائدته إلا بذكر الفضلة .

(٢) ولم نذكر ما تكرر الوهم فيه مما صححناه في الجزئين السابقين .

ص ٦ س ١٣ «وقطهُ يدخل (تحت) مائدته» وليس بسديد إقحام «تحت» لأن المائدة عند العرب خوان مبسوط ليس بينه وبين الأرض خلو حتى يدخل القط تحته. وعلى الخوان الطعام، ولم تكن المائدة على ما هي عليه اليوم كالمنضدة، ولذلك صح قولهم «جلس على المائدة» كما في ص ١٤ س ١٤ وص ٢٩ س ١٢ من الكتاب لأن الجالس على المائدة يكب عليها ليتناول من الطعام فيأكل.

ص ٧ س ١٠ «فاتركوا الصحفة يبلغ قعرها» بجزم «يبلغ» بالشرط المقدر، ولا وجه له ها هنا، ذلك لأن تعليق حدوث البلوغ بحدوث الترك غير صحيح ودليل على أن شيئاً من الترك لم يحدث قط، وهو ضد الواقع لأن ترك الصحفة قد وقع، والمراد تركها حتى يبلغ قعرها ولم يحدث، فالصواب رفع «يبلغ» وجعل الجملة حالية، بمعنى «ريثما يبلغ قعرها».

ص ١٨ س ٥ «كما تؤكل النقانق» وفي الحاشية اعتراف بكون هذا الطعام مجهولاً قلت: لا يزال العراقيون يسمون غلاصم السمك «النغانغ» جمع نغنغ والظاهر أن أصلها «النقانق» فأبدلت الغين من القاف ومضمون الخبر يدل على أنها كانت تشوى أو تطبخ كالتبوذك (١)

ص ١٨ أيضاً س ١٣ «قدمت باجميرا بخمس سفائف دقيق». وفي الحاشية أن الأصل «سقائق» لا سفائف وأنه تصحيف، والسفائف جمع سفيفة وهي النسيجة من الخوص نحو الزنبيل. قلت أما أن الكلمة مصحفة فصحيح وأما أنها «سفائف» فيدفعه الواقع لأنهم لم تجر عاداتهم بحمل الدقيق في الأسفار في السفائف ولأن خمس سفائف لا يبلغ ثمنها تسعين ألف درهم كما في الخبر فضلاً عن أن تشترى بمائة وخمسين ألف درهم ويتزود منها جيش مصعب بن الزبير كله. فالصواب «سفائن» جمع سفينة ومن المعلوم أن السفن مختلفة الاشكال والحجوم. وقد ضبطت «سفائفَ» بفتح الفاء الثانية وذلك صحيح لأنَّ الجمع على صيغة منتهى الجموع، وبقيت كلمة «دقيق» فيجب نصبُها على التمييز فتكون الجملة «خمس سفائن دقيقا».

ص ٢٣ س ١٦ «قال أبيتَ الآن (ألاّ) تودع (إلاّ) بمثل ما تقدم» ولا أرى لاقحام لفظين وجهاً، والصواب «أبيت إلاّ أن تودّع بمثل» كقوله تعالى «ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره»

ص ٣٥ س ٧ «ولعلَّ تقصيراً أنفع فيما أحبّ بلوغه من برّك». وفي الحاشية أنّ

---

(١) «المقانق» بالميم في الاول معروفة في لغة الشام اليوم. وشرحها في «محيط المحيط» (مقنق): «المقانق مصارين محشوة لحماً بالافاويه. عامية» (في لهجة مصر: سجق). وفي (نقنق) من المعجم ذاته: «والنقانق من المقددات مثل المقانق» ب. ف.

هذا القول لم يرد إلاَّ في نسخة « أ » وأنَّ فيه « ترك » مكان « برّك » بسبب التحريف . قلت إنَّ الأصل هو الصحيح الذي يجعل للجملة معنى معقولاً مقبولاً ، وأما وجه « برّك » فيحيل المعنى لأنَّ التقصير لا يكون أنفع من حالٍ سوى العدم وهو الترك هاهُنا . فالمؤلف يقول — كما في ص ١٣١ — أو ينقل عمن قال : « والعدم كريه ومهروب منه والوجود على أنقص النعوت أتمّ وأشرف من العدم على أزيد الصفات » .

ص ٢٨ س ٣ « ويقال : أرتُ إرةً فأنا أئرها وأراً » . وأرتُ خطأ صوابهُ « وأرتُ » لأن مصدر « الوار » و « الارة » كالوعد والعدة ، والماضي « وأر » كوَعَدَ وهو فعل مذكور في كتب اللغة وجارٍ عليه القياس .

ص ٣٩ س ١٠ « آكل الدواب برذونة رغوث وهي التي يرضعها ولدها » وفي الحاشية أنَّ هذا الشرح غلط لأن البرذونة لا ولد لها ، ولم ينقل الشارحان قولاً يعتمد في هذه التخطئة والاشارة ، هنا لا تغني أبداً عن العبارة لأنَّ المسألة من مسائل علم الحيوان ، فالبرذونة أنثى البرذون وهو من الخيل التي تتخذ للحمل والركوب كاتخاذ البغال ، والبرذونة تسمّى « رَمَكة » وقيل في وصفها في كتب اللغة : « الرمكة : الفرس أو البرذونة تتخذ للنسل » وسميت كلتاهما بالكديش والأكديش في القرون الوسطى ، فكيف يتخذ للنسل ما لا يلد ؟

وفي ص ٤١ س ١٦ « وإذا أخصبوا أغاروا للثأر لا للسؤال » . والفصيح المشهور « غاروا » أي أتوا الغور (الوادي) . وقد سبقه من الكلام ما يدل على عكس الغور حين الاجداب وهو قوله « فإذا كان الشتاء انحاز الناس من الجدب والجهد » . ويدل على فصاحة « غاروا » قول المبرد : « ولا يقال أغار إنما يقال غار وأنجد إذا أتى نجداً »(١) . وابو حيان من عادته أن ينقل الفصيح ولكن النساخ لم يكونوا مأمونين عليه . ألا تراه يقول في هذا الجزء ص ٢١٥ « فتقبّلها متهمة غائرة » وغائرة اسم فاعل من « غارت » .

ص ٤٣ س ٩ قول الشاعر :

وكأن هدر دمائهم في دورهم   لغط القبيل على خوان زياد

ولا نسبة بين الهدر للصوت والدماء في الدور ، لأن المراد بالهدر الصوت الذي يشبه قرقرة الحمام وتكرير صوته في الحنجرة . والظاهر أنه « وكأن هدر إمائهم » ، شبه هدر الاماء (ج أَمَة أي الجارية) بكثرته واختلاطه في الدور بلغط القبيل على خوان زياد .

---

(١) « الكامل » ج ١ ص ١٧٦ طبعة الدلجموني ، القاهرة .

ص ٤٣ س ١٢ « مزين له شهوة عن أداء الذي عليه لجاره » . ولم يقل فصيح : « لفلان شهوة عن الفعل » إلاّ بمعنى « حادثة عن الفعل » وهو ضد المعنى المراد — أعني ترك الأداء — فالصواب « سهوةُ » مصدر « سها عن الشيء يسهو عنهُ ».

ص ٤٦ س ٦ « الجوع داخلها واللّوح خارجها » بفتح اللام الثانية من « اللَّوح » وفي الحاشية أن اللوح هو العطش ، والصواب « اللُّوح » بضم اللام ، كما هو مثبت في كتب اللغة .

ص ٥٣ س ١٣ — ١٤ « لولا مخافة ضعفي ... وحاجة الأخ تبدو لي فأنجحها لم أثن .. » بنصب « أنجح » ولا وجه له لأن « لولا » شرطية لا عرضية ، فالصواب الرفع لأن الفاء للعطف المحض على « تبدو » ، وجرى الأمر على العكس في قوله في ص ٥٩ س ١ « ولا أنتم آل ريف فتأكلون » والصواب « فتأكلوا » وفي قوله (ص ١٠٨ س ١٢) : « ليس لها جنس ولا فصل فينشأ الحدّ » برفع ينشأ والصواب النصب .

ص ٦٨ س ٢ « قد أبقينا في ضرع فلانة شيئاً » ، وفي الحاشية أن « فلانة » كناية عن اسم بعض نياقه ، قلت : إن فلانة للعاقل و« الفلانة » بأل لغيره فالصواب « في ضرع الفلانة ».

ص ٧١ س ١١ « سمعت الحجاجي يقول : كل الخبز أو السمك فإن أكل ... » . والخبر ناقصٌ كلمة واحدة فلعله «سمعت الحجاجي يقول (تقول) كل الخبز أو السمك فإن أكل .. ».

ص ٧٥ س ١ « العلمُ يُنعش أقواماً » بضم الياء من ينعش أي برباعيه والفصيح الثلاثي وإيّاه أراد الشاعر ولا ضرورة تضطره إلى استعمال الرباعي . حتى إن أبا حيان نفسه قال في « الامتاع » ج ١ ص ٣٠ س ٤ : « فإنك نعشت روحه وكان خفت » ، وورد في معجم الأدباء « ج ٢ ص ١٥٢ » قول أحدهم « فأصبحت للاخوان بالعلم ناعشاً » والأدلة على ذلك كثيرة وهذا التخطي للفصيح مكرّر في ص ٢١٦ س ٩ من الجزء عينه .

وفيها س ١٩ « فقال له الحجاج اذن فتغدّ معي » وهو غير متسق ولا مستقيم . فالصواب « ادْنُ فتغدّ معي ، أمره بالدنوّ » . وقد تنبه أيضاً إلى هذا التحريف أحد أصدقائنا ببغداد وهو الأستاذ كوركيس العوّادي .

ص ٨٨ س ٦ « ولو قالت الرعية أيضاً : ولم لا تبحث عن أمرك » بالتاء في « تبحث » هكذا ، والصواب « نبحث » فإن قال الناشران إنه غلط طبع سقط الاعتراض .

ص ٨٩ س ٦ « قال تتقدّم بأخذهم وصلب بعضهم » . قاله الوزير عبيد الله سليمان

لأمير المؤمنين المعتضد بالله العباسيّ ، وهذا الفعل « تتقدَّم » ببنائه للمعلوم مخالف لرسوم خطاب الأئمة من بني العباس وكان يعدّ إساءة للأدب ، وإنما الوجه في مثله أن يبنى للمجهول ، فيكون « يتقدَّم بأخذهم » ، وقد مضى في الكتاب مثله ص ٦٤ س ١٥ وهو « فقلت يتقدَّم بكذ وكذا ويفعل كذا وكذا » قاله وزير صمصام الدولة لصمصامها .

وفيها س ١٠ « وحططتَ عليَّ الرفق من حيث أشرت بالخُرق » فكيف حطّ عليه الرفق وكيف يكون هذا من تعابير العرب ، فالصواب « حضضت على الرفق » أراد أن إشارة الوزير بالخرق حضّت الخليفة على الرفق لأن حسن التدبير في مخالفتهِ لسوء رأيه .

ص ٩٣ س ١٦ « واذكروا الغث والثمين » ولعل الأصل « السمين » فغيَّرهُ الطبع المطبعي .

ص ٩٧ س ٧ « ممن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة » وفي الحاشية أن الأصل « على ما نقف عليه » وأنه لا مقتضى له ، قلت : بل الأصل أدل من التصحيح على مراد القائل ، لأن « ما » موصولة يراد بها « كلام أئمة الصوفية » المقدم ذكرهم في الكتاب ، ولم يقل فصيح « وقفت على فلان » بمعنى وجدته أو عرفته أو علمت حاله ، حتى يصح التصحيح .

ص ٩٩ س ١٠ « وليس يجوز أيضاً أن يضم الجنس والنوع ولا يأتلفوا » بعطف النوع على الجنس ، ولا يظهر له معنى مقبول ، وإنما المراد « أن يضم الجنس النوع » أي يشتمل عليه ، أي كيف لا يأتلفون والنوع تائق إلى الجنس بكونه فرعاً له ؟

ص ١٠٢ س ١١ — ١٢ « تدفعون القضاء بنحوركم وتتلقون عقابه بصدوركم » ولا أرى محلاً للعقاب سواء أكان مصدر عاقب أم جمع العقبة ، وإنما المراد استعارة الأعقاب للقضاء بعد تشبيهه بالرماح ، فالصواب « أعقابه » جمع عقب ، فهم كما دفعوا رماح القضاء بنحورهم تلقوا أعقابها بصدورهم .

ص ١٠٣ س ١٠ « مدرعة صرف » على وزن معظمة وهو خطأ صوابه « مدرعة » على وزن « مقرعة » وهذا الوزن من أوزان أسماء آلاته واللباس من الآلات ، كالمبذلة والمفضلة والمثيرة والملحفة .

ص ١٠٩ س ٢ « الملحوظ بسيط والمدروك بعيد » . والصواب « المدْرَك » لأنهُ اسم مفعول من « أدركه إدراكا » ، ولم يرد المدروك من فعل ميت مثل المحصول ، حتى يجوز استعماله .

« للكلام بقية » العراق مصطفى جواد

٥ – التعقيب

في الشعر الحديث

تناقلت مجلاتٌ نشر قصيدة عنوانها « إلى زائرة » (١) فأثارت اهتمام طائفة من الذين قرأوها . ودليل هـذا تلك الشروح والتعليقات الـكثيرة التي وردت على مجلة « الأديب » البيروتية ، مثلاً . فرأت المجلة أن تنشر بعضها لطرافة القصيدة وتضارب الأفهام لديها (من عدد آب « أغسطس » إلى تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩٤٤) .

وإن لِمثل هذا لمدلولاً ناصعاً ، وهو أن الأفق الشعري قد تراءى فيه لمح جديد ، وأن اليقظة أصبحت الآن من سمات الواعية الأدبية عند القراء في الشرق . ولتلك الضجة مشابه في الأدب العربي القديم ونظائر في الأدب الغربي الحديث ، ولا حاجة إلى أن أحيط بمواقف الأذهان من الطرائف والغرائب التي أتى بها أبو تمام وابن الرومي ، فكل هذا أمره معلوم ، ولكني أذكر ما انتهى اليهِ مقروني وهو موقف نقاد الغرب من پول ڤاليري وهو من أئمة الشعر الفرنسي الحديث ، فقد تباعدت الآراء و الشروح لقصيدته « مقبرة البحر » وانتهى البحث ببعضهم إلى أن الشاعر أثم لأنه أصدر جديداً ، ولكن لهذا الجديد روعة .

وإنني أحب مثل هذا الأثم وأكره الورع الذي يبعثني إلى أن أمضي في الطريق المألوف... فماذا في قصيدة « إلى زائرة » ؟ ولـكي يتابع القارئ حديثي عنها أثبت نص القصيدة :

لو كنتِ ناصعة الجبينْ   هيهاتِ تنفضني الزياره
ما روعةُ اللفظِ المبين ؟   السحر من وحي العباره

◆

ظلٌّ على وَهَجِ الحنين   رسمتهُ معجزةُ الإشاره
خطٌّ تساقطَ ، كالحزين ،   أرخى على العزمِ انكساره
ماذا بوجدِ المحصَنين ؟   صوتٌ شجٍ خلف الستاره

◆

غيَّبتِ في العَجب الدفين   معنىً براعته البكاره
درًّا يفوت الناظمين   ونهضتِ تَهديني بحاره
خطواتُ وسواسٍ رزين :   وَهبٌ تُعمِّيه الطهاره

---

(١) نشر المقتطف أولا هذه القصيدة لبشر فارس في شهر مايو سنة ١٩٤٤

هذه القصيدة من صميم الشعر مبنىً ومعنى . هو قصيد عربي في لفظه وصوغه ، إنساني في معانيه ومراميه . ولكن عيبه أنهُ لم يرد وفاقاً لعمود الشعر الذي ما برح الكثير من شعراء هذا الجيل يدورون حوله بلا ملل ٍ ويتمسحون بأحجاره وقد نسوا أنهم يعيشون في القرن العشرين .

المسألة أن القصيدة ليست من الشعر المتداول الذي ألفه القراء . فقد حاول صاحبها أن يلف فيها لفاً سليماً في « نقل التفكير والتعبير من جهة المعقول إلى جهة المحسوس بلغة ناشطة لا جامدة » على حد تبيين الشاعر لطريقته في مقاله « لفظ الشاعر » الذي قرأته في عدد نوفمبر من « الأديب » (تشرين الثاني ١٩٤٤ ص ٥) . وعندي أن الغموض الظاهر الذي غشى هذه القصيدة فحجب مفاتنها عن النظرة العجلى إنما يرجع إلى ما يأتي :

١ — أن الشاعر أراد المعاني الأصيلة للألفاظ التي استعملها ولم يلتفت إلى معانيها المشوهة الجارية اليوم على غير دقة وتمحيص . مثال ذلك أن أحد شراح القصيدة عدّ عبارة « واضحة الجبين » صفة من صفات الجمال ، كما هو الشائع المتداول الآن ، في حين أن النصوع ، بحسب مدلوله اللغوي الأصيل ، هو الخلوص والوضوح ، فيقال « نصع الحق » إذا وضح وبان ، والمعلوم أنْ ليس كل جلي واضحِ الجبين بجميل ووسيم .

ويستعمل الشاعر ألفاظه بكل قوتها واكتظاظ مدلولاتها الحقيقية والمجازية . فإذا حار القارىء فليس لغرابة اللفظ ووحشته ، ولكن لأنهُ لا يلم إلمامة دقيقة بمعاني الكلمات.

٢ — أن الشاعر ، وقد أحس نبض الحياة التي تلابسه بقوة وبهرته ألوانها المستحدثة في حواسّه ، خرج عن الطوق المألوف في إيراد التراكيب المطروقة والانقياد إلى القافية المرتقبة المنساقة على أسلوب التقليد . فبيانه إذاً مشبع بشخصيته.

٣ — آثر الشاعر نهج التلويح والايماء لا نهج الافصاح والتبيين ، فهو يوحي ويقلل الكلام ، فلا يذهب بالتعبير إلى أقصى مداه ، وغرضه أن يمنح القارىء لذةَ تنبه الفكر وترهف الحس لأجل استخراج المعنى . فيصبح القارىء شريكاً للشاعر في النظم . وهذه لذة لا نجدها في الشعر الذي ذهب به التعبير إلى أبعد مدى فبدت الصورة جدًّ واضحة بلا ظلال ولا أشباه ظلال . وآية النهج الذي اختاره الشاعر في التلويح والتظليل هذا التصريح الوارد في القصيدة نفسها :

ما روعة اللفظ المبين ؟ السحر من وحي العباره

والوحي هنا ، مِن جهة اللغة الأصيلة : « إعلام في خفاء » .

وكذلك كان شأن الشاعر في مسرحيته « مفرق الطريق » التي كنت أول من كشف عن دقائقها .

ثم يحرص الشاعر على أن يكون التلويح والتظليل غير مقصورين على المعنى ، فيشرك معه اللفظ . من هذا استعماله الكلمات الآتية : « وحي العبارة » ، « ظل على وهج » ، « معجزة الإشاره » ، « تساقط الخط » ، « الستارة » ، « العجب الدفين » ، « الوسواس » « تعميه الطهارة » . وبهذا يستقيم تآلف المبنى بالمعنى .

ومنهج الايحاء والتلويح هو آخر اتجاه عرفته الفنون في أوربة . ولما كنت من رجال المسرح أراني أميل إلى هذا النهج في إخراج المسرحيات الرفيعة ، بحيث تكون الأستار المسرحية خارجة على الطريقة الواقعية في الرسم والتصوير والتزويق . ولشدّ ما ألاقي من عنت النقاد والنظارة في هذا الشأن . ولعل ذلك الذي حداني إلى كتابة هذه الكلمة في منهج هذا اللون من الشعر الحديث ، فمذهبي في المسرح مذهب الشاعر في النظم ، فان اختلف الفنان في المظهر والوسائل فهما على اتفاق في المخبر والمقاصد .

٤ — أمعن الشاعر في تغليب المعنى على اللفظ فأوجز الايجاز كله ، فلا حشو ولا شرح . وقد صرف همه إلى أن تكون العبارة إلى المساوقة والموازنة والمشابهة فيما يجريه لفظاً ومعنى . على أنني أعتقد أن للايجاز حدّاً حتى لا ينغلق المعنى على عامة القراء . وفي رأيي أن الشاعر يتجاوز هـذا الحد أحياناً وهو معتمد على فطنة القارئ ، وقد غاب عنه أن أكثر قرائنـا أشربوا وضوح الشعر العربي القديم ومالوا عن إعمال الروية ولا سيما في الشعر وهم يعدونه الآن من ألوان المتعة فحسب . هل يريد شاعرنا أن يجعل بعض شعره « توقيعات » متتابعة ؟ وهل تغلغل في نفسه طلب الاختزال ومحاولة الوصول إلى المقاصد بأقرب الطرق حتى إنهُ يورد بعض أبياته وثباتٍ طائرة تنهب الجو على حين أن أكثرنا لا يزال يدب في بطء على وجه الأرض ؟

• • •

وبعد فان الشاعر جرى في نظم القصيدة على الأسلوب الذي أعلنه في مقاله « لفظ الشاعر » إذ قال : « على الشاعر الحديث أن يصوغ عبارته على حسب ما يستأنس حسه اللغوي بفيض هاجسه ، فذلك تعبيره ... إنما الشاعر سيد لفظه ، ولا يكون كذلك إلاّ إذا أوتي القدرة على التعبير من ذات ملكته » .

ويبدو أنه من الخير لهذا اللون الجديد الغريب عند أكثر القراء أن أثبت هنا الشرح

الذي كتبه بنفاذ بصرٍ فائق الأستاذ عبدالله العلايلي (أبو مضر) وهو من أدباء بيروت ، قال :

« لو كنتِ واضحة الجبين جبهاء ساذجة التقاطيع لا تنطق ، هيهات أن تشيع زيارتك في نفسي أية الخلجات وتنفض مشاعري بأية الانتفاضـات ، فاللفظ الواضح البين خلو من الروعة ، خلو من الايحاء . كذلك هي التقاطيع التي تبدو بالغة الجلاء فانها تبدو بلهاء بالغة البله لا تملك روعة أو أثراً منها ، وانما السحر مما تستوعبه العبارة استيعا بأفيه اكتظاظ وغموض . والعبارة الملأى في تقاطيع الوجه هي المقلة الناعسة الطويلة الأهداب . ان سحرها يتبدى مثل ظلال وافياء فوق لسان اللهب وتوهج الحنين ، رصمته الاشارة المعجزة في نواحي امتداداتها . . . (هذا ولعل هذه الصورة أخلب ما قيل في العين الناعسة التي يبدو بريق اللحظ فيها من خلال فتور الجفون مثل ظل على وهج.)

هذا الظل الذي ينتشر في وهج الحنين أو هذا السحر يطيف وتنطق به مقلة ناعسة زانها الفتور ، حتى ليبدو جفنها بشعرات الهدب صفاً تساقط مثل حزين أرخى ظلال الانكسار على توهج العزم . بيد انه مع ذلك الانكسار أخاذ نفاذ . فماذا هو السر الكائن بوجد المحصنين ؟ هل هو سوى صوت شج من جراح الفتور ، من جراح الظل المتخطر على وهج الحنين ، من جراح الانكسار المسدول على العزم ؟ ان وجد المحصنين في حقيقته صوت شج ينوح وراء ستائر الحصانة وكال الطهر.

وكأن فتور مقلتها ذاهل اللفتات ساهم النظرات . فقد غيبت ، في نظرات مثل نظرات العجب الدفين العميقة التي تطالع بها ، معنىً براعته في بكارته ، في انه بكر لم يتدنس . كان معنى خالباً عميقاً حتى لكأنه الدر أو هو الدر نفسه ، وإنه ليفوت الناظمين اكتناهه وتصويره . ولقد ساورها ميل الهوى فنهضت تحته تهديني بحار الدر الشارد في المجهول . وهـذا الميل كان خطوات وسواس يهمس بشيء ، يهمس بالحب . ولم يكن وسواساً أحمق يهمس بصدى اللحم والدم بل كان رزينا . هو وهب بيد أن الطهارة عمته وأخفته ووقفت به عندها . . .

وبعد ، هذه هي القطعة في معناها كله ، وهو كما ترى حلو أنيق وبارع شائق ومبتكر أيضاً . ولولا خوف التطويل لحللتها تحليلا يكشف عما فيها من عمق الهامي وفني معجب . ولعل هذه القطعة أفضل ما قيل في المقلة التي تدور القطعة عليها فقط . »

◆ ◆ ◆

بقي أن أذكر ختاماً قول الصابي — وهو من أعلام نقاد العرب — وهو قول يناسب هذا اللون من الشعر الذي يلوِّح ولا يفصح ، فيشق آفاقاً ويحرك أذهاناً . قال الصابي : « افخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطك إلاّ بعد مماطلة منه » .

زكي طليمات

المدير الفني لفرقة التمثيل المصرية
ومدير معهد فن التمثيل العربي

باب الأخبار العلمية

القطن الملوّن

اهتدى العلماء أخيراً إلى نوع من القطن ملوّن بأصباغٍ طبيعية بنيَّة وخضْر ، وقد شجعتهم هذه الظاهرة العجيبة على أن يفكروا : هل في الإمكان إنتاج قطن ملوّنٍ بألوان متعددة أخرى ؟ وتمكنوا بالفعل من إنتاج قطن ملونٍ بألوان طبيعية حمر وخضر وبنية و «كاكية» في محطة تجارب الدلتا بسومرفيل .

وتمّ غزل هذا القطن الملوّن في مصانع جديدة خاصة تدار بأيدي النساء . ولكن الطبيعة لم تستطع إلى الآن أن تجاري الكيمياء في إتقان صبغ القطن . ولهذا فإنه لم يحن الوقت بعد لإنتاج القطن على حسب الألوان المطلوبة .

وعلى الرغم من أن القطن الطبيعي الملون لا يصلح اليوم للاستغلال التجاري ، فإنه يعد كشفاً علميًّا هامًّا جديراً بالدراسة والبحث. وقد بدا للعلماء أنه من الممكن التوصل بالطرق العملية إلى تحسين هذا النوع من القطن بحيث يتسنى رواجه في الأسواق العامة ومنافسة القطن المصبوغ بألوانٍ كيميائية .

ووجد اللون البني في تيلة القطن البري والقطن المستنبت على السواء . ولا تتسنى رؤيته إلاّ بعد أن تنفتح اللوزة، ويكمن اللون عادة داخل اللوزة بين الألياف القطنية . ويعزو العلماء هذا التكوين إلى أنه في خلال مدة نمو ألياف القطن ، تسري مادة البروتوبلازم في شرايينها ، وهذه المادة تحتوي في بعض الأحايين على ألوانٍ أخرى غير لون القطن الطبيعي ، وبذلك تتشبع الألياف باللون الطبيعي على نحو الظاهرة العجيبة التي اكتشفها العلماء الأميركيون .

وفي الولايات المتحدة اليوم ما لا يقل عن ثمانية أنواع من القطن ذي التيلة البنيّة اللون ، غير أن أصل هذه الأنواع لا يزال مجهولاً . وقد لوحظ في بعض الأحايين أن فرعاً واحداً في شجيرة قطن تنتج قطناً أبيض يحمل قطناً ذا لون بني ، واكتشف منذ أعوام فروع من شجيرة تنتج قطناً ذا لون بني تحمل قطناً أبيض .

والمعتقد أن جميع القطن الأخضر يرجع في الأصل إلى تغيير في طبيعة الأرض او في طبيعة النبات نفسه . وتيلة القطن الأخضر قصيرة شاذة في طبيعتها ، وسرعان ما يتحوّل هذا اللون إلى لون بني عندما يتعرض للضوء. ومن العجيب أن القطن الأخضر يحتوي على كمية كبيرة من الشمع بالنسبة إلى محتويات القطن الأبيض ، وهو من هذه الناحية أثقل وزناً من القطن العادي . على أن المعروف حتى الآن أن العلماء الروس كانوا أول من أنتج القطن الأخضر .

طرائف عن الحشرات

يعيش النمل في مستعمرات منظمة تنظيماً حسناً تحتوي كل مستعمرة منها على ما يقرب من مائة ألف حشرة . والنحل يجتمع منه في كل خلية نحو خمسة عشر ألفاً ، والزنبور يعيش كل أربعة آلاف منه معاً ، والشفور (Hornet) يكوّن جماعات تضمّ الجماعة منها مائتي حشرة ، والنحل الطنّان يجتمع في جماعاتٍ تضمّ الواحدة منها عدداً يختلف بين الثلاثين والمائة .

ويُقسم العمل في جميع هذه المستعمرات تقسيماً عادلاً يكاد يصل إلى مرتبة الكمال . فلكل عملٍ جماعاتٌ خاصة تقوم بانجازه . ويسعى كبار النمل لِسَبْي صغار النمل من المستعمرات الأخرى ، وتسخيرها كالعبيد . غير أن حياة النمل المسبيّ في المستعمرة الجديدة لا تقل حريّة عن حياة السادة فيها وكثيراً ما تتقاتل المستعمرات المختلفة حتى تقضي جماعة منها قضاءً مبرماً على الجماعة الأخرى . ولهذا السبب يُفرَز جانب من النمل للقيام بأعمال الجند من قتال إبانِ الحروب . أما أسباب التطاحن فترجع عادة إلى نزاع حول الحدود الخاصة بجماعات النمل ، وكثيراً ما يُفَضّ النزاع باتفاق بين الطرفين على المصالح المشتركة .

ويمارس النمل ضروب الرياضة كالمصارعة والملاكمة ، كما يقوم بعض منه بحراسة الأبواب والمنافذ . ويتصف الحراس عادة بكبر الرؤوس .

ويضحي بعض النمل بحياته بتناول مقادير كبيرة من العسل تفوق طاقته ، مختزناً إياها في جوفه كالوعاء ، كي يستطيع باقي النمل التزود بالعسل حين الحاجة إليه من آنية تقيه شر الفساد والتلف . ويقوم النمل علاوة على ذلك بزراعة الأرض كالانسان تماماً . ثم إنه يزرع الفطر (عش الغراب) ويتفنن في إتقانه حتى إن الزرع الذي نشاهده في الطبيعة من هذا النبات لا ينمو من تلقاء نفسه ، بل يقوم النمل بزراعته بنفسه . كذلك يهتم النمل بتسميد الأرض وتنقيتها من الأعشاب ، ويستعمل فضلاته الحيوانية في هذا الغرض .

ويسعى النمل وراء هوام منزلية خاصة لامتصاص سوائلها ، كالقمل النباتيّ مثلا . فلا تسلمُ قملةٌ من نملةٍ تمتصُّ عصارتها الذهبية ، لا لنفعها الذاتيّ ، بل لكي توزعها بعدئذ .

ومما يجدر ذكره أن نظام النمل الجماعي ليس نظاماً مثالياً ، ذلك لأن الجماعات تكون عادة مقسمة إلى أقسام مهنية تختلف باختلاف نشاطها ، ولا تجتمع جميعها في عش واحد ، بل تتفرق في جماعات مختلفة . فالنمل الذي يقوم بالزراعة مثلاً ، ينتمي إلى فصيلة اتيني (Attini) دون سواها . لذلك يصبحُ

من المحال أن نحصل على الصورة المثلى في الطبيعة لعُشٍّ من أوكار النمل يجمع بين الطوائف المِهنيّة المختلفة للنمل، لأنها لا تجتمع مطلقاً في وكرٍ واحد .

البنسلين

جاء في إحدى البرقيات الخاصة بمكتب الأنباء الحربية للولايات المتحدة بالقاهرة أن مما يبعثُ على التفاؤل والاستبشار أن أكثر الأطباء تحفظاً ألفوا أنفسهم أخيراً ، بعد أن أثبتت التجارب الطبية مزايا البنسلين في القضاء على الجراثيم ، مضطرين إلى الاعتراف بأن هذه المادة من أعظم الكشوف الطبيّة التي عرفها العالم حتى الآن .

وفي مقدمة الأمراض التي أمكن علاجها بالبنسلين جميع أنواع القروح الجلدية (الدمامل) والالتهابات الجلدية ، والتهابات الأنسجة تحت الجلد ، والخراجات وأمراض العظام التي تنشأ عادةً من جرثومة « ستافيلوككس » التي تغزو الدم تاركة في أغلب الأحيان آثاراً شديدة الخطر . وهذه الجراثيم التي تقاوم جميع أنواع العلاج الأخرى ، بما فيها العلاج بمادة السلفا تخضع للبنسلين بسرعةٍ تثير الدهشة في كثير من الأحايين .

وآية ما تذهب إليهِ أن طفلاً ولد أخيراً في مدينة نيويورك ، وبعد انقضاء ثمانية عشر يوماً على ولادته ، أصيب بزكامٍ استحال إلى التهابٍ في الغشاءِ المخاطي ، ودلّ التحليل على وجود جرثومة « ستافيلوككس » في الأنف والحنجرة ، ولم تلبث هذه الجرثومة أن سرت في الدم ، والأدهى أنهُ تبين من الكشف بأشعة رونتجن (إكس) أن الطفل أصيب بالتهاب رئوي ، فرأى الأطباء أن يضعوه في خيمةٍ مملوءة بالأكسجين ، ويعطوه عقار السلفا . وبعد خمسة أيام ، كان لا يزال على قيد الحياة ، بيد أن حالته لم تتحسن. وعندئذٍ حقن بالبنسلين فما إن انقضت أربع وعشرون ساعة حتى كان في طريق الشفاء ، وجعلت حالته تتحسن باطراد في الأيام التالية ، ودلّ الكشف بأشعة رونتجن خلال الأسبوع الثالث على زوال الالتهاب الرئوي .

وقد ثبت كذلك أن البنسلين فعال ضد جرثومة « ستربتوككس » التي تفتك بخلايا الدم والتي تعد سبباً لأمراض شتى نذكر منها القروح العفنة في الحلق ، ومرض الخشاء (تقيح النتوء الحلمي أو الخشاء) ومرض الحمرة ، والتهاب البريتون ، وحمى النفاس .

وعقاقير السلفا فعالة ضد بعض هذه الأمراض ، أما البنسلين ففعال ضد جميع هذه الحالات .

وقد أحرز البنسلين غلباً حاسماً على الأمراض السرية فهو يشفي مائة في المائة حالات السيلان

في مدة تختلف بين ٢٤ ساعة و ٤٨. وفي بعض الأحيان يتم الشفاء بعد أن يحقن المريض بالپنسلين أربع مرات في ١٢ ساعة أي بمعدل مرة في كل ثلاث ساعات. ويقال مثل هذا القول أيضاً في الزهري، إذ بعد أن يعالج المريض مدة ثمانية أيام فقط بالپنسلين تصبح جراثيم الزهري في حكم العدم. على أنه يلاحظ أن الزهري مرض غريب، ذلك أن جراثيمه اللولبية ألفت الاختفاء في أنسجة الجسم، وتظل في حالة نوم وسبات مدة طويلة. وفي كثير من الأحيان يكون من العسير أن نعرف: هل تحقق الشفاء النهائي أو لم يتحقق؟.

وديع فلسطين

ثمرات الحرب الحالية

في العلوم والفنون

ما من شك أن العلماء والمهندسين في العالم أجمع قد عبئوا لأجل الحرب الحالية، فأصبح ألوف منهم، يقومون بأعمال حربية شتى. ولذلك لا يسوغ أن يذاع كل ما يعرف من ثمرات مجهوداتهم. بل يجب أن يظل جلّ أنباء انتصاراتهم في ميادين العلوم والفنون سرًّا دفيناً حتى تضع الحرب أوزارها. وكل ما في وسعنا أن نذكره أنه توجد أجهزة لاسلكية تدل على مواقع الطائرات وهي محلقة في أجواز السماء. وتوجد أيضاً مواد أشد قوة وانفجاراً من الترينيتروتولوين (ت. ن. ت) بل تشاهد كل يوم منتجات المصانع الكبرى، قديمها وحديثها وقد سخرت جميعها لانتاج العتاد الحربي، من طائرات ودبابات ومدافع وبواخر وسائر المعدات الحربية الميكانيكية. وكلها نتائج أصلية للمباحث العلمية والمخترعات الهندسية العصرية. وليس العلماء جميعاً متفرغين لخدمة المصالح الحربية فحسب بل لفريق كبير منهم مآثر غرّ في كثير من ميادين العلم المختلفة، لا مندوحة عن التنويه بها. ولا غرو فقد تجلى في پيرل هاربور، الظفر الرائع الذي أحرزه عقار السلفانيلاميد في علاج الجروح كما ظهرت منافع تناول الجرحى عقار السلفاتيوزول من طريق الفم. وهو علاج يعقبه الشفاء العاجل المدهش الذي لم يسبق له مثيل بين جرحى الحروب المثخنين بالجراح، كما ذاعت شهرته في علاج الالتهاب الرئوي القتّال غالباً. وكذلك في معالجة الأمراض الناشئة عن الجراثيم المقيحة وهي تتفاوت بين الدمامل الناتجة من ميكروبات البذور العنبية المولدة للقيح، وبين تسمم الدم الخطر، فتنقذ يوميًّا مئات ألوف من الأرواح. وأغرب من ذلك أن استطاع العلماء

استخراج مواد كيميائية من الجراثيم الحية نفسها ستتساعد عن قريب السلفانيلاميد ومشتقاته . وقد تفوقه في خواصه الطبية التي تخفف مصائب الامراض كما أتيح لهم صنع أدوية جديدة ناجعة لمكافحة الأدواء وذلك من الجراثيم التي تعيش في الطين نفسه ومن العفن الذي يفسد الخبز .

وبعض هاتيك المواد الكيميائية الجديدة شديد التأثير في الجراثيم . فمنها ما يبيدها جميعاً ومنها ما لا يقوى على قتلها وإنما يقف نموها . فالجراميسيدين gramicidin مثلاً قد تمّ استعماله في معالجة المرضى ، وهو أعظم دواء حاسم يؤثر في الجراثيم الدقيقة المستديرة التي تسمَّى بذيرات جرام الايجابية Gram-positive microcci وبلغ من قوته أن سبعة من البليون من الاوقية منه تكفي لقتل بلايين من جراثيم الالتهاب الرئوي ، كما تهلك جراثيم البذور السبحية الخبيثة في ساعتين . كذلك ينجح في علاج الامراض الجلدية وفي الاصابات المستعصية من ذات الجنب ، وفي الجروح الملوثة بالقيح . وقد استنبطه من التربة الدكتور ديبو وذلك بطرق كيميائية إذ استخرجهُ من الخلايا الدقيقة للجراثيم التي تعيش تحت سطح الارض في المدن وفي الحقول المحروثة في انحاء الريف .

ويقول العلماء إننا سنسمع أخباراً شتى بشأن هذه الطائفة من المواد الكيميائية التي تستعمل في الطب لدرء الامراض . وتوجد أيضاً مادة كيميائية سنعرف عنها كثيراً عما قريب وهي مادة الارجينين arginine وهي حامض من الاحماض الامينية التي هي لَبنةٌ من لبنات البروتينات . وقد أسفرت المباحث التي دارت في شأنها عن كونها مادة كيميائية مختصة بالأبوة ، ولولاها لاستحالت تلك الامنية التي يصبو اليها كل متزوج ، والارجينين أحد الاحماض الامينية العشرة الاساسية التي توجد في اللحم والسمك والدجاج والبيض والجبن واللبن وبعض الخضر وقد ظهر مفعولها مادةً كيميائية اساسية (للأبوَّة) إذ تطوَّع فوج من الشبان لحرمان أنفسهم إياها فعاشوا على طعام محتوٍ على مقدار كافٍ من العناصر الأخرى ولكنهُ خالٍ من تلك المادة الجوهرية وعند تغذيتهم بغذاء مجرد من الارجينين ، قلّ في أجسادهم عدد خلايا تناسل الذكور ، وصارت الخلايا نفسها التي نمت فيهم عادمة التأثير . والليزين lysine حامض آخر من الاحماض الامينية قد يكون مادة كيميائية أساسية (للأمومة) إذ دلت المباحث التي دارت فيها ، على كون دورة تناسل الإناث تضطرب عند افتقارها الى الليزين .

«للكلام بقية» عوض جندي

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس بعد المائة

٣٩٣ التعرض للضوء : لفؤاد صرُّوف
٣٩٨ قوس الغمام (قصيدة) : للدكتور حبيب ثابت
٣٩٩ البنسلين والرمد : للدكتور علي توفيق شوشه بك
٤٠١ الروح العلائية وأثرها في أدبنا الحديث : لأنيس الخوري المقدسي
٤١٤ حمى البرداء ومقاومتها : للدكتور بشير العظمة
٤٢٠ أنواع القطن وتخصيص مناطقها : ليوسف فارس
٤٢٥ عادات البولنديين وعقائدهم : لحسين المهدي غنام
٤٢٩ المدرسة الفرخشاهية : للدكتور أسعد طلس
٤٣٤ التكيف الاقتصادي : لسعد ابرهيم النمري
٤٣٩ الحيوان المنفي : للأب أنستاس ماري الكرملي
٤٤٣ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد
٤٥٠ علم الكيمرجي ومنافعه : لعوض جندي

باب التعريف والتنقيب

٤٥٥ ١ — المسائل : « اللغة والقومية » بقلم بشر فارس
٢ — الكتب : « المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن » تأليف جولدتسيهر — ترجمة علي حسن عبد القادر . نقد بقلم أحمد محمد شاكر — « المعري ذلك المجهول » تأليف عبدالله العلايلي . نقد بقلم محمد شوقي أمين — « ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء » تأليف يوسف أسعد داغر . نقد بقلم عبد السلام محمد هارون — ثم كتب ظهرت
٣ — المجلات : نشرة المباحث العربية
٤ — الاستدراك : الامتاع والمؤانسة ، الجزء الثالث ، للتوحيدي . بقلم مصطفى جواد
٥ — التعقيب : في الشعر الحديث . بقلم زكي طليمات
٤٧٩ باب الأخبار العلمية * القطن الملون . طرائف عن الحشرات . البنسلين . ثمرات الحرب الحالية في العلوم والفنون .